†

فلسفة السكون
عند
ماري اسحق

ما هو السكون

السكون هو نقص حواسنا من العالم .

لغة كلمة السكون تدل على معنى فعله، أى الهدوء وعدم الحس والاضطراب .

لأنه مشتق السكون وكلمته هو الهدوء من كل الأشياء والهرب. والفرار من كل الأمور .

السكون هو سر العالم الجديد، والكلام هو أرخص وآلة لهذا العالم .

السكون هو الانقباض، وحل الحواس من العالم .

اعلم أن مبادئ سيرة المتوحدين هي التجرد والسكون وعدم الارتباط بإنسان أو بأمر ما .

تربية التدبير هي الانحلال من الكل .

المتوحد هو إنسان ترك العالم ومجده وغناه وأخذه وعطاءه وربحه، وترك بلده وأقاربه. وانتقل الى المجامع والأديرة أو إلى الجبال والبراري. ويجلس في السكون ويعمل بيديه ويقيت نفسه. أو تعطى له صدقة من المؤمنين حسب احتياجه فقط. ويعبد الله ليلاً ونهاراً.

دعوة إليه

كل موضع تصير فيه، كن متوحداً، منفرداً بضميرك، وغريباً ...

وأنا أتضرع إليك أيها الأخ: لا تمل من أعمال النسك، ولا تتراخ عن السكون.
مبارك هو ربنا يسوع المسيح الذي وهبنا السكون. طوبى للمتوحد الذي يحبه ويثبت فيه، ويصبر على ضوائقه الأولى وينعم ببراحاته الأخيرة، ويجاهد في حروبه القديمة، ويتكلل بأكاليله ~~القديمة~~ العتيدة.

يا أخي حب الوحدة، ولو أنك عاجز عن جميع حقوقها.

ولأجل أن جيلنا الردئ ما يساعد على هذا يا أخوتي، لكي نجد الهدوء بالتمام والسكون الحقيقي مثلما كان في الأجيال الأولى: أي موضع نكون فيه، فلنجلس مع أنفسنا ولو أنه يوم واحد، ليس في الدير فقط بل وفي الطريق وفي أي موضع كان، ولو أنها ساعة واحدة.
غير ذلك الزمان الذي كان يوافق. فلا تنتظر العدل والترتيب بل يوماً بيوم نطلب، ولو تحت سقيفة أو خباية نهاراً قليلاً.
وباختصار: كل موضع يقع فيه بيدنا السكون، فلنخطفه حسناً بانقباضنا إلى أنفسنا يوماً أو إثنين. لأن الحكماء يقتنونه هكذا، ويقتنونه لأنفسهم في هذه المدة القصيرة من حياتهم. لئلا يدركنا الموت

حب السكون يا أخي بحرص، لأنه فيه تجد نفسك الحياة.

يكون نظرك إلى ذاتك. ولا تتركه طارحا عنك. لأنك ما دمت تنظر إلى غيرك، فما تبصر نفسك. وإن أنت رددت نظرك إليك استطعت أن تبصر نفسك.

وأكثر من التعب حب السكون.

وأفضل من كل شئ حب السكون.

الجوهر يصان في الخزائن. ونعيم الحب داخل السكون والهدوء.

تحذير لمن يمنعه

إن ثمّ أخ فيه كفاءة لهذه النعمة، وقد أخذ هذه الموهبة من الله: إن كان أحد من الرؤساء ومدبري الأديرة، من أجل نياح (جسدي) ما، أو عمل جسدي، أو من أجل حسد، يعوقه عن هذه الموهبة، هذا عليه ديونة قدام الله، وهو مزمع أن يعطي الجواب قدام كرسي المسيح.

إن ثمّ راهب فيه كفاءة لنعمة السكون هذه، وقد حظي بها من الله، ويعترضه أحد من الثياقنة أو رؤساء المجامع بمنعه من السكون، هذا عليه ديونة، وقدام المسيح يعطي الجواب.

إن ثمّ متوحد فيه كفاءة لهذه النعمة أي نعمة السكون، وقد

نطق بهذه الموهبة من الله. وأحد من لشراقته أو رؤساء الأديرة أديرة للإخوة، إما من أجل غيرة وحسد أو عمل جسداني أو نياح، يمنعه عن هذه الموهبة: هذا عليه دينونة قدام الله، وهو منع أن يعطي جواباً قدام منبر المسيح عزّ وجلّ.

ضرورته

السكون هو عمل الراهب. فإذا فقد السكون، اختلت حياة الراهب.

في الضرورة تلجئ الذين يهتمون بخلاص نفوسهم ويشتاقون إلى محبة ربنا وتعليم وصاياه المقدسة، أن يداوموا الثبات في السكون، كل واحد حسب رتبته.

أما أن نعمل الفضيلة الطبيعية كنوح وإبراهيم وأيوب فأمر مستطاع.

وأما أن نقتني بأن نكون في العالم مسكناً لله بالطهارة وقداسة ذواتنا، فما نستطيع. وإن حدث، فإنما يكون لأفراد قليلين بمعونة الله بنوع السياسة.

ولهذا هرب آباؤنا القديسون منه إلى القفر. لأنهم كانوا جميعاً متفقاً إخوة، كما كتب في الإبركسيس أن كل الشيء الذي كانوا يقتنونه كان للجميع، وكل الإخوة كانوا نفساً واحدة ورأياً واحداً، بسلام ومودة بلا انقسام قلب. وكانوا بملاقاة بعضهم بعضاً يصعدون إلى السموات بتوافق ضمائرهم.

وأما في زماننا هذا، فقد كمل علينا المكتوب أن اثنين

من التلمذة إلى السكون، لأجل أيام ردية.

وليس إثنان فقط منقسمين على ثلاثة في جيلنا هذا، بل هو الواحد منقسم على ذاته، ويتكدر من كثرة المعارضة التي تلاقيه كل يوم. ومع أنه في السكون، إلا أنه يبني ويهدم على الدوام بلا قيام حسب المصارفات الضرورية المتوالية عليه.

وأيضاً في الأيام الأخيرة، لما كثرت المجامع، وبدأ الانحلال يتواتر، وبردت الحرارة، فإن الشباب الذين خلصوا أنفسهم بالأعمال النشطة، بالحبس والسكون في القلاية في مجمع الشيوخ: عندما أحسوا أنه قد بدأت تظهر فيهم أثمار الروح، التجأوا إلى السكون الدائم.

وإنما هربوا من التلمذة والتكدر، لئلا يضيعوا سلامة قلوبهم بكثرة التشويش الحاصل من الملاقاة الضرورية للذين هم سكان بينهم

وحسبما أظن أنه قد بدأت الوحدة المباركة في المبدأ، أنهم كانوا يكملون الإخوة المتوحدين في مكانٍ مكانٍ منفردين ويعلمونه الفضائل بالسلامة في الوسط، وعندما اتسعت المجامع والأديرة ونموا جداً جداً. هكذا نرى أنه يجب في المنتهى كما يلوح لنا من كلام سيدنا الشباب.

لأنه عسر على الكاملين السكنى مع كثيرين، لأجل اختلاف سير الإخوة، إذ يضطرب الضمير للتحفظ المطلوب إلى الواحد، عندما يسير في جميع السبل وأعمال الفضيلة، ويتخبط معرفة الأخ المميز في وسط طرق الإخوة، إذ ليست هناك كفاءة في الطبع الضعيف الذي شقي في برية التوبة كل تلك المدة من الزمان.

ويتضيق ويتكدر في وسط كثرة السبل الأخرى، لأجل الإخوة المتكلين لأنه بواسطتهم يصنع الشيطان قتالاً مع النشطاء الذين يكملون الفضيلة — كما قال أوغريس: إن الشيوخ العماليين

في الجسم، تثير عليهم الشياطين الإخوة المتخلين.

ولهذه الأسباب هرب الآباء من المجامع مثلما هرب شيشوي وسكن في جبل أنطونيوس، لأنه قال: في الأول كنت مستريحا مع سبعة إخوة، والآن ما أقدر أن أسكن مع كثيرين، إذ يتكدر قلبي ويتخبط بغير إرادتي.

كما قال مقاريوس: إنه إذا غضبنا على الإخوة ينقلع تذكار الله من قلوبنا، ويظلم العقل ويتكدر. وإذا غضبنا على الشياطين فبلا ضرر يثبت العقل.

— وكان الآباء يطلبون من أجل الشياطين والنار والوحوش ويتشفعون لأجل سذاجتهم. وأما من أجل الإخوة المتخلين، وتغاير تدبير الإخوة العماليين، أو الملاقاة الدائمة والمخرج الحاصلة في وسط كثيرين، فهؤلاء القديسين كانوا يصلون لئلا يتأذوا، ولئلا الله كان يغضب.

درجاته

مقدمة:

قبل كل شيء ينبغي أن نعلم أن تدابير المسيحيين تنقسم إلى إفرازات كثيرة. فلمعرفة المسيح سيدنا بعجز وضعف بني البشر، وكثرة اختلاف آراء النصارى، وأنه ليس جميعهم يريدون أو يستطيعون أن يسلكوا طريق الكمال المتعب العسر، لكي يدركوا بعمل الجسد وعرق النفس ذلك الشيء الذي من أجله أدركهم المسيح، أعني أن يحبوه بالكمال بعمل وصاياه المحيية حتى الموت، مثلما أحبهم هو بالتمام وأظهر حبه لهم بالفعل بكل تعب وتجربة احتملها من أجلهم

حتى الموت موت الصليب المرذل. فلهذا استعمل معهم الرحمة، ووضع قدامهم طرقاً كثيرة وسبلاً مختلفة.

لكن الذي ما يقدر أن يسير في الطريق المتعبة لأجل صعوبتها، يسير في الأخرى لأجل سهولتها. حتى لا يخيب أحد من النصارى من ميراث تنعم ملكوت السموات التي أنعم بها عليهم بسفك دمه من أجلهم.

لأن كل إنسان حسب محبته لسيدنا وبمقدار عمله وصاياه، فكذلك تكون مكافأته وتنعمه. قال سيدنا: كثيرة هي المنازل في بيت أبي. وكوكب أشرف من كوكب بالمجد. لأنه هكذا هي حياة الموتى، قال رسوله. فلهذا قلنا أن هنالك اختلافاً كثيراً في سيرة المسيحيين، وكل واحد أفضل من رفيقه وأكمل.

درجات:

شيء هو تدبير العلمانيين النصارى الحقيقيين، وشيء آخر هو تدبير المتورعين.

وآخر هو تدبير الرهبان: هؤلاء لم يتخذوا نساءً، ولا يأكلون اللحم. وهم أقل من المتوحدين وأفضل من المتورعين، هؤلاء الرهبان يزرعون ويحصدون، ويخدمون من يطرقهم، لأن أديرتهم مبنية على قوارع الطرق.

وآخر هو تدبير المتوحدين المبتدئين. هؤلاء هم سكان في مجامع كنوبيون.

وآخر هو أيضاً تدبير المتوحدين المنفردين في القلالي، وهم يحفظون السكوت.

وآخر هو أيضاً تدبير المتوحدين الذين يحفظون سكون الأسابيع أعني صوم سيدنا وصوم الرسل وصيام الأنبياء.

وآخر هو تدبير وقانون المتوحدين الذين يسكنون منفردين خارج الجامع وفي البراري والمغاير.

وآخر هو تدبير وسكنى المتوحدين المتنقلين. مثل ما كتب عن الأب أشعيا، وكالسبعة الذين مضوا إلى الأب شيشوي.

وآخر هو هو التدبير العالي الكامل الذي للسواح.

وليس بنا الوقت أن نتكلم عن إفرازات وتدابير هذه الرتب المختلفة. لأن كل صنف منها يحتاج إلى ميمر ليظهر ما هو تدبيره وما هي نتيجة عمله

أولاً: يُبعد الإنسان ذاته، ويحد لنفسه قانوناً أنه في مدة الأسبوع لا يخرج بالكلية من قلايته.

وبعد ذلك يتدرج إلى سكون أعلى الذي هو كل الأيام. وإن استطاع وأراد أن يكمل حياته بالسكون الكلي الكلي، والانقطاع الدائم حسب إرادة سيدنا، فحسناً يصنع.

وإذا لم يقدر على الحبس الضيق مثل الأقوياء، ولا على الأسبوع جميعه مثل المتوسطين، فلا يفتح بابه كل يوم ويمضي إلى أخيه، ويرتب له أسباباً، ويقضيه خارج قلايته. هذا جميعه يقدر أن يعمله ضعيف الجسم.

سكون التغصب وسكون الحرية:

بنوعين تكمل تدابير السكون. وكل واحد بنوع مختلف يفلح: هناك سكون حرية البنين، وسكون عبودية التغصب أي المرتبط بحدود القوانين التي للسكون الضيق، حتى تنقى الحواس من الأفكار والشاغبات، وتهدأ بالسكون الداخلي، وتنقى من الملاقاة والصدق النافعة والخصام والغيظ والخلطة وتؤهل للزكاوة بهذا السكون الضيق بالانقباض الداخلي الدائم ويتولد الخوف والحياء

وانسياب القلب. ومن تغير صنوانه الأعمال العصبية يتولد التواضع والحفظ والصبر وترتيب الحواس.

وسكون الحرية هو سكون الضمير الذي المختلج بالله من الداخل والخارج. وهو ذلك السكون التنصيبي.

وهذه دلائله: حرية الأفكار، سلامة القلب دائما، راحة الضمير، عدم الخوف من جميع أنواع الخليقة المتجسمة وغير المتجسمة. البعد عن جميع المفاوضات، محبة فقر البرية حتى لا تستعبد حرية ضميره وأفكاره بحوق الشرفاء والأدنياء الكرميين والحقيريين، وحتى لا ينقسم على ذاته ويتوبخ من نيته بموت الضمير عن الآلام وارتفاع عن العالم، واتحاد الذهن بالله، والضمير هو في الله والله فيه.

غرضه

أهمية وجود الغرض:

اسمع أيها الأخ الحبيب إن كنت تريد ألا تكون أتعابك فارغة وأيامك باطلة وعارية المنفعة التي يترجاها العارفون وذوو الإفراز التي ينالوها من السكون، ليكن دخولك إلى السكون بإفراز ومعرفة، وليس كيفما اتفق، ولا بحسب جهة العادة. لئلا تكون مثل كثيرين.

بل ليكن لفكرك غرض وقصد، إليه تنظر وتقوم كل عمل سيرتك.

واسأل الذين يعرفون هذا بالتجربة في ذواتهم وليس من القراءة فقط.

ولا تهدأ حتى تتخرج في جميع طرق أعمالك.

وكل قدم تضعها فتشه وافحص إن كنت في الطريق سائراً، أو زغت إلى بعض السبل التي توصل إلى المتوهات!!

إن أردت أن تجد الحياة غير الفاسدة في هذه الأيام القصيرة

التي لك: وصولك إلى السلوك ينبغي أن يكون بإفراز وقصده طالبك)
وافحص عن عمل السلوك ما هو. ولا تجر وراء الاسم فقط. بل غص
وانقبصه، واهتم بالحاجة لتدرك مع الترتيب ما هو ارتفاع لهذا العمل
وسمو هذه السيرة.

وكما أن الناس كل فعل يريدون أن يبدأوا بعمله لهم فيه قصد
وغرض، وهذا الأمل الذي ينتظرونه يحرك فكرهم أن يضعوا أساساً
لذلك الشيء. وغرضهم منه هو الذي يشجع فكرهم على مقاساة الضوائق
الموجودة في العمل. والثمار الذي ينتظرونه منه، مثل شيء ما ضابط
يسحب العقل إلى أن يكمل الفعل، هكذا أيضاً هو حال السلوك الجليل
ميناء كل الأسرار. العارفون لهم فيه قصد وغرض، إليه يشخص نظر
الفكر من حين يبدأ بوضع الأساس إلى أن يكمل جميع البنيان في كل
أعماله المديدة وصعوباته.

مثل عيني البحار للتيه ترصدان النجوم، هكذا المتوحد نظره شاخص
داخله في كل تدبير سيرته وجهة طريقه، حسب القصد والغرض
الذي وضعه في فكره من اليوم الأول الذي بذل فيه نفسه للمسير
في بحر السلوك الحرج، إلى أن يجد اللؤلؤة التي من أجلها ألقى نفسه
في لجج هذا البحر الذي ليس له قرار.

وانتظار أمله يخفف عليه ويهون ثقل العمل والضوائق الخطرة
والمصاعب المصادفة إياه في هذه السيرة.

والذي من مبدأ سلوكه ما يضع لنفسه هذا القصد وهذا الغرض،
وإليه يصوب استعمال عمله، بل بالهرج وكيفما اتفق يعمل: فهو
مثل من يرعى الريح، ولا يتخلص أبداً من روح الضجر كل أيام حياته.
واحد من أمرين يحصل له: إما أنه ما يقدر أن يتجلد في ثقل
صعوبة الحبس، فيخرج من السلوك بالكلية. أو أنه يكمل وثبت فيه،

تكون قلايته له مثل السجن وينغلق فيه .

لأنه ما يعرف أن ينتظر الغذاء المتولد من السكون، ولا أنه يطلب بوجع قلب ويبكي بحزن في الصلاة، ويشتاق إلى شيء ما يجده، الشيء الذي أشار إليه آباؤنا المملوؤن رحمة ومحبة لأولادهم . ووضعوا إشاراته في كتبهم لاستعمال حياتنا .

لزوم الغرض المستقيم :

قبل كل شيء المحتاج هو الذي يجلس في الوحدة والحبس والسكون ـ وبالأكثر الأخ المبتدئ ـ إلى هذه الأشياء الثلاثة : إلى الغرض المستقيم، وإلى تكميل خدمة الأوقات، وإلى المرشد. إلى هذه الثلاثة بالضرورة مفتقر الأخ .

أما القصد المستقيم فيضطر إليه المتوحد. لأنه بدونه جميع عمل الفضيلة باطل هو، وليست له مكافأة .

جميع عمل المتوحد إذا لم يكن مصوبا إلى غرض مستقيم كقصد الوصايا، فهو عمل باطل .

كثيرون يعملون أعمالاً كثيرة بغير غرض مستقيم. مع أن الأثمار الحقيقية لا تخرج من العمل، وإنما من القصد الذي عمل لأجله العمل .

رأس السيرة المتقنة هو الغرض المستقيم، مع صلب الإرادة مقابل الآلام بواسطة عمل الوصايا .

ما هو الغرض :

ما هو الجلوس في الوحدة وعمل السكون؟ وأية أسرار مكتومة في هذا العمل؟ ومن أجل ماذا يرذلون البر المصنوع بين الناس، ويختارون الضوائق والجلد في الجلوس في القلاية بالسكون الغريب؟

ليس هو عمل الفضائل:

تاه عن كثيرين هذا وما يعرفونه ولا يفهمونه، أننا نحن المتوحدين لسنا لأجل عمل الفضائل نحبس أنفسنا داخل الباب، بل حتى من الفضائل أيضاً نكون فوق. لأن الفضائل إنما يصنعها الأحياء، وهي في وسط كثيرين تُعمل.

فإن كنا نحن نطلب من السكون عمل الفضائل، وإخوتنا الذين في الجمع هم أيضاً بعينها يطلبونه، فما لنا والهرب والحبس وقبر القلاية؟!

بل إنما نحن ننتظر أن نقتني من عمل السكون الشيء الذي إذا ما تعلقنا من جهودنا أعيننا ما نناله بالسكنى مع كثيرين ولا نستطيع اقتناءه.

ولو كان قصدنا عمل الفضيلة، فما هو المانع من عملها في السكنى مع كثيرين؟ وأعني بها الصوم وخدمة الأوقات والصدقة وما يشبه هؤلاء. بل وبالأكثر ينشط عمل الجمع هؤلاء. وما نعرف فضيلة خارجة عن هؤلاء.

أما التنعم الروحاني الذي بالعمل الخفي للسكون يُوجد، فليس يُدعى الفضيلة لأنه سيد الفضائل. أما الفضيلة فهي كل عمل ظاهر يكمل بحواس الجسد من أجل الله.

ولكن نعمل هذه الفضائل أولاً في الجمع. وبعد أن نتخرج ونتدرب ندخل إلى السكون. ونتأمل أن نقتني فيه شيئاً، هو معروف أن صوت الطير يطرده! فكم بالأكثر خروج ودخول كثيرين ومناظر دائمة؟

هوذا ننظر كثيرين من الآباء الروحيين، ما كانت لهم قوة ليكملوا بها الفضائل، وما رأوا أن يتركوا السكون، بل كانوا ملقين داخل الباب، والباب مسدود في وجوههم، وكانوا هادئين فقط. فلعله كان ينبغي لهم أن يتركوا السكون، لأجل أنه لم تكن لهم أعمال؟! لكن ما كانت حلاوة

الوحدة تتركهم أن يعطوا أنفسهم لنفع الجميع على الدوام.

كانت حلوة عندهم صلاة واحدة بالسكون في قلبهم. وهم ملهوبين بحزن والتقشف يقدمونها لله. خيراً من ربوات صلوات وأعمال يقدمونها لله خارج قلاليهم، وأفضل من نظر ومفاوضة فضلاء العالم وحضور الأعياد.

الفضائل الكبار والأعمال التي يعملها المتوحدون في الجبل في وسط كثيرين، تكون ناقصة في عينيه بقياس عمل آخرين. لأنه ليس في واحد القدرة أن يكمل جميع أعمال التوبة والمناسك المقررة التي يصنعها كل واحد من الوحدة. ولا يصنعها في ذاته على الدوام، لأنه ما أخذ قوة لتكميل الجميع، بل جزءاً من النعمة مثل لسان من الجسم.

أحد المتوحدين أخبر شيخاً أنه قد ضاقت معه الغار والوحدة. فأراد الشيخ العارف أن يكسر افتخاره، فقال له "إن أردت أن تعرف كذلك فامضِ اخضع نفسك في المجمع، لأنه ليس لك هناك سلطان على كوز ماء.

وليس هو تكميل القوانين:

اعرف هذا أيها العزيز: أننا نحن الساكنين في الوحدة مع أنفسنا في الهدوء والحبس، ليس من أجل التعب والقوانين نعمل هذا. نعرف أن هو أن الخلطة مع كثيرين تنشط على هذا من أجل حفظ الجسد وحرصه.

ولو كانت الضرورة إلى هذا فقط، ما كان أناس صالحون وآباء قديسون يتركون الحديث والخلطة بالناس، ومنهم من كانوا يسكنون في المقابر، وآخرون في المغاير والجحور. كانوا يختارون الوحدة التي تمرض الجسد بزيادة وتبطل همته عن إتمام القوانين. ومع كل ضعف واسترخاء الجسد وشدة المرض الذي كان يلحقهم، كانوا يصبرون (على الوحدة) ويدومون كل أيام الحياة.

حيث كان فيهم أناس، ولا على أرجلهم كانوا يقدرون أن يقوموا، ولا لصلاة العادة يقربون. وما كانوا يقوون على أن يسبحوا الله بأفواههم، ولا مزمورًا واحدًا من العادة التي كانت لهم يفعلون بالجسد. وإذ هم في هذا الضعف، ضبطوا السكون واختاروه على القوانين. وبهذا المذهب أجازوا كل أيام حياتهم، هذا الذي يظن به أنه بطالين. ما كانوا يحبون ولا يريدون من أجل البطالة من الأعمال والقوانين أن يدوروا خارجا، ويذهبوا إلى الكنائس ليتنعموا بالأصوات والتسابيح التي هي للأرضيين.

قال القديس أوغريس، اعلم أيها العارف ذو الفراز أننا إنما نطلب الانقباض مع أنفسنا في الوحدة والسكون والحبس، ليس من أجل ثقل القوانين بزيادة لأنه معلوم أن الشركة مع كثيرين في المجمع تساعد على حفظها لأجل نشاط الجسد.

غرض السكون:

واحدة هي المطلوب في كل وقت أيها الإنسان وهي التي يجب أن (لفضلها) نرفض كل الأشياء لأجلها، وهي أن نحرص أن نرضي الله ونجده فقط. ونضيع كل شيء، ونزدري بكل شيء، ونبغض كل شيء، لكي نجد الواحد الذي هو لنا كل شيء.

ونهتم أن نجد الله بإهلاك أنفسنا. وعند ذلك نجده على الحقيقة. لأن هلاك أنفسنا لأجل الله، هو مبدأ هذا الذي قلناه.

والقصد المستقيم هو أنه من أجل الله ومن أجل حبه يسكن المتوحد في الهدوء والحبس. ولا يتفكر بفكره أن يأخذ أجر أعماله شيئا من هذا العالم: لا نياحا جسديا، ولا ربحا بشريا، ولا رئاسة وتدبيرا، ولا مدحا ومجدا وكرامة. بل جميع قصده وسعيه

أن يؤهل لحب ربنا يسوع الكامل ولنقاء بالروح. هذا هو القصد المستقيم الممدوح، الذي هو مخطط إليه المتوحد ليقتنيه.

نحرص أن نقتني بالسكون سكوناً، أعني بسكون الجسد نقتني سكون النفس. وهذا هو الجحود بالنفس الذي قال عنه المسيح أن نرفض كل شيء ونتبعه. أي أن يكون قلبنا في السكون.

لأن الذي يشتهي الحبس والسكون، وينفرد بنفسه عن جميع الإخوة: ينبغي له أن يكون قصده وغرضه أن يقتني بسكون الجسد سكون النفس.

لأن السكون بالجسم يولد سكون القلب.

الجسم المنفرد يولد ضميراً منفرداً. وحسبما يختلط الجسم، كذلك يختلط العقل.

فلأنه يجب السكون يا أخوتي لكي يموت العالم من قلبنا.

قال القديس أنطونيوس لبولا البسيط تلميذه «من غير تدبير السكون لا يمكن أن ينظر الإنسان نفسه، ويفهم آلامه».

وذلك أن النفس من الاضطراب الذي يلاقيها من الخارج، ما تقدر على أن تتأمل ذاتها في الحروب المتحركة عليها خفية. وأما في السكون والهدوء، فتقدر على الفطنة بما يتحرك من الداخل. فمغبوط هو الإنسان الذي يعرف هذا ويلازم السكون والهدوء.

اجلس في قلايتك، لتأخذ تجربة حروب الشياطين.

حتى يأخذ لنفسه تجربة في جميع الضوائق التي تحدث عليه من الأفكار ومن الشياطين اللازقين بعمل السكون المسبوحي.

كما أنه لا يستطيع الرماة أن يتعلموا رمي النشاب وسط الجموع في الأسواق لكيلا يبطلوا من الجري قبالة الإماج الموضوع، هكذا أيضاً ما يقدر الإنسان أن يتعلم صناعة القتال الروحاني حسناً والجري الدائم قبالة الإماج الإلهي، ولا أن يعرف صنعة الأفكار وحكمة التجارة الروحية

من هذا البحر المخوف. ولابد أن يتحلى بحيل وصنائع كثيرة، إن لم يثبت في السكون الدائم والفرغة من كل شيء. ينضبط فيه، ويبطل به العقل ويتخلف عن الصلاة والتضرع الدائم. والذي ما يصيب هذا السقط.

ليتميز الأول الروحانية والعزاءات الإلهية التي تعطى له بنعمة الله حسبما يليق بطقس حمل السكون الصغير الذي هو حفظ الشبابيك. لأن السكون من العالم يثير بالطبع حركات أولاً الخارج وثم بالنفس ومثلما نرتفع إلى الله ونثبت في الرهبنة، إذا لم تدخل المياه الغريبة إلى ينبوع النفس.

قال أحد الآباء: هذه هي منفعتي أنا من السكون: أنه إذا بعدت عن المعسكر الذي أنا فيه جالس، يتفرغ عقلي من استعداد القتال ويرجع إلى عمله.

وقال آخر: وبالمداومة على السكون، يهدأ قلبي من الملاقاة واضطراب التذكارات، وتطلع على بغتة بعض أمواج الفرح التي من معاني الحركات الداخلية التي بغير انتظار تفيض بغتة لتنعيم قلبي. وإذا ما أحاطت هذه بسفينة نفسي تعزلها من حواس جسد هذا العالم وحياة هذا الجسد البائدة، بدهشات السكون الحقيقي بالله.

وآخر قال: السكون يقطع الأسباب التي تجدد الأفكار، وداخل حصنه يبيدها، ويُنسي التذكارات المتقدمة، وإذا ما بليت الأمور القديمة ونُسيت، عند ذلك يرجع العقل إلى التقويم الطبيعي.

وآخر قال: ما يقدر إنسان إذا عاين وجوهاً كثيرة، وسمع أصواتاً كثيرة مختلفة غريبة عن الهذيذ الروحاني، وتحدث وتفاوض مع مثل هؤلاء، أن يتفرغ عقله لينظر ذاته بالخفاء، ويتذكر خطاياه، ويهدم أفكاره، ويرصد ما يأتي عليه، ويتفاوض بالصلاة خفياً.

ولا أن يقمع الإنسان حواسه تحت سلطان النفس بدون السكون،

والبعد عن الناس. لأنك اتحدت بهم - أي النفس العاقلة - واشتبكت بالأقنوم، ومع حركات الجسد تنجذب إن لم تكن مستيقظة بالصلاة الخفية.

وأنت أيها الأخ محب السكون، تمسك بهذه الإشارات التي من كلام الآباء، وضعها قدامك مثل السراج، وإليها صوب كل تدبير سيرتك وقوم.

قبل كل شيء تحكم بالأشياء التي توافق غرض عملك، التي بدونها ما يمكنك أن تتشبث بمعرفة الحق، واحرص عليها، واظهر تجلدك.

إن الصمت الدائم وحفظ السكون يكونان من هذه الأسباب الثلاثة: إما لأجل تشريف الناس، أو لأجل غيرة حارة لعمل الفضيلة، وإما أن ذلك الإنسان في داخله مفاوضة إلهية فكله منجذب نحوها.

ومن لا يصدر عنه هذان الأمران من قبل أحد السببين الأخيرين، فمن اللازم بالضرورة أن يتعرض للسبب الأول.

ثماره

تأتي الثمار بالمداومة

اعلم يا ابني أن السكون - أعني الوحدة وكل التدابير - حسب المدة والمفاوضة بها تعطي ثمارها: السكون والمداومة وحفظ العقل،

وإن كنت طالبًا من المداومة ومتوانيًا بالعمل، فلا تنتظر أن يحصل لك عزاء حقيقي منه.

كل تدبير بغير قيام مدة فيه، يكون أيضًا بغير ثمار، كما لو أنك بدأت فيه بداءة فقط.

وأما العمل الدائم - ولو أنه قليل، فلأجل دوامه كنوزًا

عظيمة يُرثى.

وينبغي أن نعرف بحكم الضرورة، أن الطاقة والإفرازات التي في
هذا العمل الإرادي الطيب الذي هو السكون، ليس من حيث يُبدأ
في سيرة السكون توجد هذه الإفرازات.

ولكن إذا ما جلس الإنسان في السكون، باحتراس وتحفظ،[1]
وليس من يدخل إليه ويخرج، فمن بعد ضجر كثير في السكون يتولد
فيه قليل من الاتساع - إتساع القلب - ما يكون له سبب من مكانه.

وإن لم يداوم المتوحد على هذه في قلايته بل يبني بالشمال ويزينه
بالناحية الواحدة، وبناحية اليمين الأخرى يهدم ويعد خرابًا ما بني،
لأنه يجب أن يحترس من قدام لئلا يُطعن، ومن وراء لئلا يُسلب
وما يحس. مثلما يلوم أباء أشياء جهالتنا وعدم معرفتنا.

كما أن البناء الذي يُبني بالنهار ويُهدم بالليل ما يصعد إلى الرأس:
هكذا سيرة السكون التي تتم بالأسابيع والسبوت في سبعين سنة
ما تنجح وما تخرج أثمار الروح التي كتبها بولس الرسول. وعمل ونسك
الذي يشق نفسه ويقتل ذاته، هو عمل فارغ.

ثلاث سنين في سكون دائم كلي، من غير تشتت ولا انتقال،
مع تكميل واجباته، وهو محبوس في قبر القلاية، ومستتر من حركات
هذا العالم المبهج، حتى تُنسى الحيل والأنواع والعوائد وتصرف
مفاوضات هذا العالم الكلية، وينهض الإنسان الجديد بشبه صورة
الله خالقه، وينفخ فيه روح العزاء الخفي؛ خير من سكون سبعين
سنة بتشتت، يهدم ويبني، ويبني ويهدم، بلا قيام!

المتوحد المستيقظ الحريص على تدبير السيرة، ونفسه متواضعة
وضميره بسيط: إن كان يتلو بحب المسيح، ويحفظ سكون القلاية،
ويحترس بباله، وفيه إفراز، في السنة الأولى من جلوسه في القلاية

مثل عربون يذوقه من روح التوبة لعزاء حنونه. وباقتصار، حين
كل التدبير، إنه كان ما يضيعه وينجذب للأمور كثيرة، بل ينقيه من
الجاذبات وخباط هموم المرئيات، ويقتني احتقار الذات، ويكسب
الثبات في الهدوء ويسرع في اقتناء سلامة القلب، ويكرس بعمله،
ويحفظ حقوق سكون القلاية، ويجد كل وقت قدام النعمة، حينئذ
تكمل النعمة بالفعل كل ما أذاقته إياه سرًا في السنة الأولى حسب
ترتيب عمله بالسيرة.

بعض الثمار :

المتوحد الذي يتغصب ويصبر مدة في السكون والوحدة
بالاختفاء عن الوجوه، تبطل منه العوائد والتدابير الأولى والحيل،
التي هي رباطات النفس التي بها يموت ويعيش الإنسان.

إذا ما كانت بالتغصب والانجذاب تحفظ واجبات السكون،
ويُرى بالنعمة وبإشارة الأب الروحاني، ففي مدة من الزمن تُمحى
من القلب الصور والرسوم والتذكارات الغريبة التي هي خارجة
عن سيرة السكون. وتصطبغ النفس بالفضائل الكبار التي هي:
السلام، الاتضاع، الهدوء، الحب، الطيبة، الفرح، العزاء
الروحي. وهذه الفضائل ترسم في النفس الصلاة الروحانية.

ومن موافقة هذه الفضائل، يؤهل بالرحمة إلى اتحاد العقل
بالله، والإحساس السري الذي للعقل.

ومن هذا الموضع - بواسطة إيمان النفس وكلية المعرفة
بالرجاء - يجود علينا إنعاما بما يفوق الطبيعة حريتنا
دالة وثقة البنوة بشارة الابن.

س : ما هي قوة فعل السكون على سبيل الإيجاز؟

ج : إن السكون يميت الحواس الخارجية، وينهض الحركات التي من داخل، أما التصرف الذي من خارج فيفعل ضد هذا. أعني أنه يقيم الحواس التي من خارج ويميت الحركات التي من داخل.

نحب الوحدة لكي نقتني منها ضميراً متوحداً، متحداً بالله، بالسر الوحيد الذي من حضن الآب. وحيثما

الجسد المنفرد يولد ضميراً منفرداً. حيثما يختلط الجسد لذلك يختلط العقل.

الوحدة مع الله توحدنا. الوحدة بالعقل تشركنا. والنقاوة الضمير في زمن قليل بغير تعويق توصلنا.

إذا مكثت زماناً داخل قلايتك، وأنت مستتر بأعمال متعبة، وبالحفظ الخفي، وتمنع حواسك من كل ملاقاة ومصادفة، وتحل عليك قوة السكون: أولاً تصادف ذلك الفرح والبهجة التي بغير سبب في وقت وقت تملك على نفسك. وبعد ذلك تنفتح عيناك وتنظر حسنة الله وحسن الخلائق حسب كيفية نقاوتك.

وإذا ما انجذب العقل بدهش لهذه النظرة، فالليل والنهار يكونان عنده واحداً بدهش (لهذه النظرة) بتمجيد أعمال الله.

ومن هذا الموضع تسترد حاسية الآلام من النفس بلذة هذه النظرة. ومن ندخل درجتي الاستعلانين العقوليين الموضوعتين في الترتيب بعد هذا في من الزلاوة الأولى.

الحلو يا أحبائي أن نتأمل في أنفسنا وقت الصلاة إن كان لنا تصور بألفاظ المزامير والهذيذ والصلاة. لأن هذا يحدث من السكون الحقيقي.

وكما أنه لا يمكن للميت أن يحس بأمور الأحياء، هكذا المتوحد

المدفون داخل السكون كأن في قبر، تكون نفسه خالية من روابط الجسم ومن الإحساس بالأمور المتصرفة فيما بين الناس.

إن أعظم العطايا التي يحظى بها المتوحد يوماً بعد يوم، هي أنه يثبت في السكون.

من الهدوء وعدم الخباط والاضطراب، يقتني الإنسان بسهولة طهارة القلب وبساطة الإيمان، ويتأهل للنقاوة: إن هو حفظ حقوق السكون، واحترس بواجبات السيرة، وكان يهرس دائماً بمخافة الله. حينئذ يقول الإنسان ما في ضميره وقلبه، وينجذب بحرارة المحبة وحسن تدبير السيرة التي أحبها.

إرتباطه بالفضائل المتنوعة:

علاقته بالصلاة والهذيذ:

... هذا هو تدبير الصلاة، وهذه هي منفعة الهذيذ الإلهي الذي فيه — وهو إنما يكون بالجلوس الغزير والوحدة والبعد عن جميع هموم العالم. لأنه هذا يلد الهدوء وسكون القلب.

لكن بالمداومة على الهذيذ بالله والسكون من الأفكار، يستطيع الصغير أن يتفرس بكل أنواع الصلاة، ويقتني معرفة على الله. وبواسطة الإلهام يدخل إلى الأسرار.

قال أحد الشيوخ: أنا أجري بسرعة للسكون، لكي تحلو في قلبي ألفاظ القراءة والصلاة، وبلذة أقوالها يصمت لساني. وكمن هو في نعاس نوم أقع بانقباض حواسي مع حركاتي.

ولأجل سكون العقل، قال العظيم في العارفين أوغريس: السكون يلد سكوناً لأجل الصلاة الطاهرة.

اعلم يا أخي أن أفضل كل صلاح يفعله الإنسان في هذا العالم هو الصلاة الطاهرة.

وإن لم يمت الراهب وينقطع من كل أحد، ويتقيد بالسكون إلى ذاته كالميت في القبر، فما يستطيع أن يقتني هذه في نفسه.

لأن الصلاة الطاهرة تتطلب فرغة من جميع الأشياء. لكي يقوم بلا طياشة قدام الله بعفه وقت الصلاة، والفكر مجموع من كل طياشة مكانه، منقبض إليه، وفي الله فقط يشخص بسكون حركاته، متشوقا إلى ملاقاة معرفة الله بمداومة الصلاة إليه.

إلى الصلاة الطاهرة لعله يبلغ الذي هو ساكن بين كثيرين.

وأما الصلاة الروحانية وكون القلب قدساً للرب، فإن لم يتجرد الإنسان، ليس من المفاوضة البشرية فحسب، بل ومن كل تذكار عالمي، فما يؤهل لأن يتجرد قلبه بالروح ويتفاوض عقله خفيا مع الروحانيين ومع أرواح الصديقين الذين كملوا.

السكون يصلح جداً لعمل الله. لأجل هذا تبعد القديسون صوامعهم من العالم، وبعد هذا اهتموا باستعداد القلب بعمل الله الخفي. لأنه إن لم يرتبط الجسد أولا بعمل الفضيلة، لا يتفاوض الفكر بفلاحة القلبية.

علاقته بالتوبة والدموع:

إن كنت تحب التوبة، فللسكون ينبغي أن تحب، وخارجا عنه لا تتم التوبة. وإن لاججك أحد على هذا، فلا تلاججه أنت، لأنه ما يعرف أي شئ يقول. لو كان يعرف ما هي التوبة، لكان يعرف أيضا موضعها، أنها لا تكمل في السجس.

وإن كنت تحب السكون - الذي هو أبو التوبة، فأحبب بلذة الخسارة التي تكون للجسد واللوم والظلم اللذين يتبعان عليك.

محب السكون هو منتظر الموت أبداً. ومن هو غير ذلك، لا يقدر أن يدوم في السكون.

إذا ما كنت في سكونك تعمل العمل الجيد، إذا ما دنت نفسك أن تخرج من الظلام، لهذه لك علاماتك: أن يتقد قلبك ويشتعل كالنار ليلاً ونهاراً. وجميع الأمور الأرضية تكون عندك مثل الزبل. ولا يكون لك أن تدنو من الغذاء بلذة الأفكار الجديدة الحادثة المتحركة في نفسك على الدوام.

ويفيض لك ينبوع دموع بلا غصبية، مختلطة بجميع أعمالك: أعني مع قراءتك، ومع صلاتك، ومع خدمتك، ومع هذيذك، ومع أكلك وشربك. ومع جميع ما تصنع تختلط الدموع.

فإذا ما نظرت هؤلاء في نفسك، ثق وتشجع.

علاقته بالعفة:

السكون هو ميناء العفة.

اصقل يا أخي جمال عفتك بالدموع والأصوام، وبالسكون منفرداً مع نفسك.

كل أفكار تجذبك إلى السكون، اعلم أنها تدعوك إلى العفة. وكل أفكار تجذبك إلى المفاوضة، اعلم أنها تدعوك إلى النجاسة مثل الطير إلى اللقط الذي على الفخ. وهكذا هي أسباب الآلام.

علاقته بالتواضع:

بدون السكون ما يتضع القلب، وبدون اتضاع القلب ما يُنقى القلب من الحركات المتواترة.

وهذه الأنواع الثلاثة يقتنيها الإنسان من السكون: إن كان

حب الله، أو الدهش بأسراره، أو تواضع القلب.
ولكن الذي ما له سكون، ما يعرف واحدة من هؤلاء، ولو كانت له فضائل كثيرة. لا حب الله يقدر أن يعرف ما هو، ولا معرفة الروح أي شئ هي، ولا التواضع الحقاني الذي من القلب.
وأنا أشهد لكم بالحق: إن كنتم عادمين السكون، حتى لو تعلقتم بكل الفضائل بجفون أعينكم، ما تقدرون أن تؤهلوا لتدنوا من هذه الأسرار التي تعطى للعاملين في السكون.
والذي مبادئ الطريق ليست له - أعني التجرد والسكون - ظاهر أيضاً أنه لا تواضع له ولا صلاة.

علاقته بفضائل أخرى:

احذر الإدانة، وكن محترساً، وكن وحدك واثبت في السكون، لتنجو من العثرات.
كما كتب القديس يوحنا التبايسي أن الذي يبتعد [illegible] إلى حرية السكون، ينجو من أمور كثيرة تضطرب من خارج، وينتقي قلبه من المقاومات غير المرتبة التي تصادف سمعه كل يوم بملاقاة ضرورية، وينجو من الثلب والدينونة والحلف والجبال الفاضحة للإنسان والمنجسة لزكاوته والكدرة لنقاوة نفسه.
كل الفضائل من الصبر والتعب تتولد، وبالأكثر السكون والحفظ الذي هو في الحبس والسكون. وما يقطع نفسه من كل تذكار العالم، ويبتعد عن كل مفاوضة، ويداوم على السكون بعزم مستقيم وحبة للأعمال: هذا لا الخطايا القديمة يذكر ولا زلاته كل يوم ينظر، ولا الآلام يعاين، ولا المجاذبات الشيطانية يفهم، ولا للجهاد مع الآلام والشياطين يستعد، ولا لنقاوة القلب يصل، ولا للصلاة الطاهرة

الطاقة يستحق، ولا ينمو مجد المسيح الإلهي ويشرق باستعلانات روح القدس داخل نفسه.

هذه المواهب والعطايا جميعها ما تعطى أبداً خارجاً عن الحبس والسكون. والذين يحبون السكون ويحتملون جميع ضيقاته ويصبرون، ثم ينالونها بلا نقص. وإن كان فيهم من يخرجون من هذا العالم وما ينالون هذه المواهب، لئلا يتكبروا ويخسروا، أو لأجل أسباب أخرى مخفاة عن معرفتنا؛ إلا أنهم من العطايا الأولى ما يخيبون. وفي العالم الجديد بهذه العطايا يتنعمون في ملكوت السموات، لأجل حبهم لسيدنا وصبرهم على السكون لأجله.

الضوائق والصبر يتقدمها الغربة والتجرد والسكون والاعتياز الجسداني والوحدة. وهؤلاء يساعدون على الصبر بسهولة.

قال يوحنا التبايسي: بدون مصاف التجارب لا تقتنى هذه الحكمة. وإذا ما جلس الإنسان في السكون، وصبر على القتال والتجارب، نال حلاوة القلب. وهكذا تقتنى بعدها جميع أنواع المنظورات.

وهكذا نأتي إلى قدام كل يوم. ولا نجد رجاء الله فقط، بل وإيماناً حقيقياً. من أجل هذا يشتهي الإنسان السكون.

لأنه بدون السكون والوحدة، لا يستحق أن يدعى وحيداً مع ابن الله الذي أهّله بالنعمة لكرامة اسمه.

شروطه

الصوم والهذيذ :

السكون هو يبرد الآلام الوحشية، ويميت التذكارات الباطلة، ويجدد العقل للعمل، إذا قرن به شيئان أساسيان ملازمان هما: نقص الغذاء، وتثبيت العقل على الدوام بأسرار العالم الجديد، وربط الضمير بغير انقطاع بذكر الله وإذا انقطع تربطه عاجلاً مثلما علمنا الآباء وفهمونا.

فإن كان هذان الأساسان يصحبان كاليد اليمنى واليد اليسرى. وبمعونة ربنا يصحبان ويتقاويان معاً. بسهولة تدوس على رقبة الأعداء.

جمع العقل :

وينبغي ألا نأخذ الهدوء بجزء واحد، ونترك سائر أجزاء النفس والجسد. ومثلما نهدئ الجسد ونسكته بالحبس داخل القلاية، نكون أيضاً بالاحتباس من الأفعال البرانية التي بالجسد تكمل.

وكما نمنع جسدنا أن يضطرب بغير الواجب، كذلك أيضاً نحبس عقلنا من الاهتمام والهذيذ بالجسدانيات، ومن ملامته للقريب والحقد عليه. وبالدوام نسمر على الصليب، ونحرص ألا ينحل وينزل من هناك.

وكما نعتني أن نربط الجسد بالحبس، نحرص أيضاً أن نكون في الحبس بلا حبس، ونضبط حواسنا الخمس من الأفعال التي تضيع الفكر وتشتته. لكي نتكلم من حبس فكرنا داخل قلبنا بذكر ربنا ونظر مجده.

وإن كان هذا ليس لنا من حبسنا وسكوتنا، فبالضرورة يسلك الرجل، ولا البخار يتشتت، ولا تذوب الشمعة قدام قوة النار، هكذا ينحل قدام الأفكار والآلام، وما يقدر السكون المضبوط به أن ينفعه بشيء.

لأجل مداومة تذكار الله ونسيانه كل ذكر، قال يوحنا التبايسي : ينبغي للذي يجلس في السكون ألا يكون عنده ذكر إنسان أبداً في قلايته.

أنكون هادئين في القلاية، وإنساننا الداخلي يطوف في النجاسة ؟!... بالظاهر إذن نحفظ الوصايا، ونحن في الخفاء متحركون للآثام، وبالأفكار الرديئة نفسد الأعمال الصالحة.

غلق الأبواب الثلاثة :

ثلاثة أبواب مفتوحة، إذا ما أغلقناها وكانت تحت سلطاننا، داخلاً منها نجد المسيح الملك: باب القلاية، وباب الحواس، وباب القلب الجواني.

لسنا نقدر أن نغلق الباب الأوسط، إن لم نغلق الباب البراني. ولا يثبت الجواني بحفظ حقاني، إن لم نحترس بالذي هو خارج منه. لأن هذه الثلاثة مرتبطة بعضها بالبعض.

لا يمكن غلق الجواني دون الاحتراس بالذي هو خارجه. ولا هذا الخارج تكون في العقل قوة لحفظه، إن لم يحترس بحفظ الجواني، لأن به يكمل حفظه، وهو المتحفظ عليه في الحقيقة. ولهذا إن لم يحفظ الحارس الباب الجواني، فاللذان هما خارجه يثيران عليه في كل وقت اضطراباً ووسخاً، لأن الملك في البلاط الداخل منه يسكن.

وإن كان الذهن يتيقظ يحفظ بابه بغير فتور. فإنه يأخذ من الملك سلطاناً لأجل مداومته على بابه، ويكون مخوفاً ذا هيبة ورعب على جميع حاسديه الذين هم من خارج لأجل تداخله مع الملك. وإذا ما نظروا أو سمعوا صوته هربوا واختفوا.

ويشهد على كلامي هذا ذلك الشيخ القديس الذي قال :

هناك من يجلس في القلاية مائة سنة وما يعرف كيف ينبغي الجلوس فيها. أعني الذي ما يغلق باب القلب الجواني الذي داخله يسكن المسيح الملك،

ويحارب لكي يغلق الأبواب الخارجية بتعب كثير وعناء.

أما نحن فالحكماء العارفين بالطريق التي تقطع الدورات الكثيرة في الجبال، نحرص - في جلوسنا داخل القلاية - على أن نغلق الباب الذي داخله بحل السير. وإذا ما أغلقناه جيداً، ندنو بعد ذلك منه للمفاوضة معه. أما إن كنا نفتحه قدام كل أحد، فمن كثرة الداخلين والخارجين لا الملك يكون له وقت ليدخل، ولا نحن نجد فرصة للكلام معه.

لأنه كلما كانت هذه الأبواب غير مغلقة من العارفين بالحق، فما يكون للقلب هدوء ولا من واحد من الأفكار ولا من واحد من الآلام لأن العقل الناظر ما يقدر أن يعمل.

بالحقيقة عمل مائة أخ في المجمع وهم يصومون ويصلون، ما يساوي عمل متوحد واحد جالس في السكون، ولو كان ضعيفاً. ما خلا أن يكون عادم الخلطة ومفاوضة الناس، ومقفلاً داخل بابه بغير انقطاع، وليس من يدخل ولا من يخرج.

الاتضاع وتعب الجسد:

إذا ما جلس المتوحد داخل السكون في القلاية بالفرصة الذي ذكرناه، وكان مقتنياً هذين الأمرين بإزاء اللذين هما تعب الجسد، والاتضاع وتحقير الذات في كل وقت؛ فليس يبطئ، وكثير يوجب له سلطانه من العلاء. لكي بغير تعب - داخلاً وخارجاً - يحفظ كنزه بغير انسلاب.

لا يكسب أحد شيئاً إلا ويزول سببه. ولا يقدر إنسان أن يتفاوض بالإلهيات، إن لم يزل ويبتعد عن الزمنيات، ويتغرب عن كرامات هذا العالم ولذاته، ويقفو (ويقتفو) لحقوق الصليب، ويشرب كل يوم خلاً ومراً من الآلام والشياطين والمسكنة والناس.

المتوحد الذي هدأ ذاته، وسالم نفسه مع الكل، واتفق

الثالوث الذي فيه: فهو مفتقر إلى جلوس الحرية بسلام السكون، والانتظار والتأمل كل ساعة في أسرار الروح. ويحتاج هو أيضاً إلى تحقير الذات والانحطاط. لأن هذين يعتقان الإنسان من الغيظ والخباط. وهو مفتقر أيضاً إلى انقباضه من الضمير وجمع الأفكار من الطياشة، والاحتراس الكثير من فعل الضلالة الشيطانية.
وهو يحتاج أيضاً إلى الهداية أب روحاني يرشده يكون قد مارس الأمور بنفسه وحقق وقام.

لا يُخالط به عمل آخر:

قال أحد الشيوخ: ينبغي ألا نخلط بعمل السكون اهتماماً آخر أو عملاً ما، ما خلا الأشياء التي تليق بعمل السكون. ونتحفظ في كل تدبير بما يليق به، لئلا تتخبط علينا سيرتنا ونضطرب في تدبيرنا.

قال لي شيخ قديس: إني متعجب لأني أسمع أن أناساً يسكنون في القلالي عمالاً، ويكملون بعد هذا قوانين القلاية بغير نقص وما يتخبطون!

وقال كلمة يتعجب منها: إني إذا مضيت أريد الماء، اتخبط من ترتيب العادة، وأعاقه عن تكميل عملي!

ثلاثة احتياجات أساسية قبل كل شيء يحتاج الذي يجلس في السكون إلى هذه الثلاثة التي هي: ① الذهن المستقيم، ② تكميل خدمة الأوقات، ③ المرشد. هذه الثلاثة لابد منها.

أما الذهن المستقيم فيحتاج إليه المتوحد لأنه بدونه جميع عمل الفضيلة باطل هو، وليست له مكافأة.

ويحتاج هو أيضاً إلى تكميل خدمة الأوقات في السكون، لأنها تحفظه من أذية الشياطين أعدائه. حسب قول الأب أشعياء: لا تهمل خدمة

أوقاتك، لئلا تقع في أيدي أعدائك.

لزوم المرشد:

وأيضاً مضطر الأخ الحبيب إلى المرشد، ليفتقده في وقت معروف، ويتكلم معه من الطاقة في الأشياء التي يضطر إليه. ويعطيه مشورات صالحة في ما ينبغي له أن يفعل.

لأن قتالين صعبين يكونان مع الأخ المبتدئ: أحدهما الضجر الصعب والآخر الغلوة الشيطانية. لهذان اللذان هما ضد بعضهما.

وفي هذين الأمرين مضطر هو بالضرورة إلى واحد من الشيوخ. لكي إذا كان محزوناً بالضجر يعزيه ويسليه. وإن أضله الشياطين بحرارتهم، يلجمه ويعظه ويبكته.

... ولا نحس بالحب بدون النعمة وهداية الأب الروحاني.

قال مار افرام: ليست تنجح طريقنا بدون المرشد الذي وضع من الله للذين يريدون أن يسيروا إليه. لأن تعويقات كثيرة تلد الضلالة وتحير الذي يريد أن يسير في طريق الفضيلة.

فلهذا ينبغي له أن يفرز نفسه إلى مفاوضة شيخ فاضل مشهور له بحسن السيرة ومعرفة السكون. ومعه فقط يتفاوض ويتشاور ويتعلم سيرة السكون.

صفات المرشد:

... شيخ مشهور له بحسن السيرة ومعرفة سيرة السكون.

... هو مفتقر إلى ... هداية الأب الروحاني الذي جرب الأمور في ذاته، وشقي في برية التوبة، وصبر على الضوائق، وأحس بكمينات الشياطين وحيلهم، وسقط في الآلام وقام بنعمة الله، وعبر الأردن.

... أب روحاني يرشده يكون قد مارس الأمور بنفسه ووقع وقام

كل إنسان لم يأخذ تجربة في السكون زماناً طويلاً، فلا ترج أن تتعلم

منه شيئاً عن الخيرات التي للمجاهدين، ولو كان حكيماً وعالماً وله كثرة أعمال.

الكلام المقول من التجربة والتحنك، اقبله ضرورة ولو يكون قائله ساذجاً أمياً. لأن كنوز الملوك الأرضية لا تأبى أن تأخذ زيادة من فلس الفقير، ومن نزرات صغار يجمع غزير الغنيمة.

لا تشاور من لا يصار على سيرة ويكون قصده وغرضه مساوياً لك في التدبير، ولو كان حكيماً. بل ماثل الأمر الذي جرب الأمور بالفعل، وشاوره أكثر من حكيم متفلسف ذي البحث والنظر الخالي من التجربة بالعمل.

وما هي التجربة؟ أقول إن التجربة ليست هي أن يلاقي الإنسان الأمور ويترصدها من غير أن يكون قد أدرك في ذاته عملياً. بل أن يحس بمنفعتها ومضرتها احساساً ظاهراً بطول معاناته لها زماناً. لأن ربما على أكثر الأمر يكون شيئاً: أما في الظاهر فمؤذٍ، وأما في الباطن ففيه كل المنفعة.

وعلى هذه الجملة يعسر تصور ما يضاد هذا، أعني أنه قد يكون شيئاً على أكثر الأمر في الظاهر نفعاً وفائدة، وأما في الباطن فيكون خسراً وضاراً. ولذلك فإن كثيراً من الناس ينالون الخارق من الأشياء المكروهة ربحاً. فهؤلاء شهادة معرفتهم ليست حقيقية، بل شهادة الذي عرف أن يختبر سائر الأمور بالصبر والإفراز.

ولأجل كل هذا: ليس كل أحد ثقة أن تقبل مشورته، دون أن يكون قد ساس أموره أولاً أحسن سياسة. وتلطف في إعطائه ذاته، وله تجربة في كل أمر، ولم يحب ذاته. وقد انعتق من العوارض الجالبة التعب. فهو لا يخاف مذمة، ولا يخشى وقيعة.

الذين سبقوا بالكرامة سبقوا بالتعب. والذين سبقوا بالتعب صاروا مرشدين للتعب. عظيم هو ظلم الذين بدأوا من الذين قبلوا.

إذا لم يكن هناك مرشد:

الذي وجد الكنز داخله، لا يحتاج أن يطلب صدقة من البرانيين،

ولا يستفسر من إنسانه. بل يحرص على ماله، وهو مسالم لكل أحد، لئلا يضيع وديعة الحب ويتنجس.

من رأى أنه ليس بعقله في التدبير الفريدي والوحدة مع ذاته، فليرتب نفسه، ويتصرف بقية أيامه بحسب نظام السكون والعمل بأنواع ترتيبه. وإن لم تكن فيك كفاءة [في حالات تخلف الحارة]، وليس هناك معلم تشاوره من جهة أمور سيرتنا: فارجع إلى أول الطريق التي منها ابتدأت، واعمل الفصح بحرارة، واذكر مريم بزناها وإسرائيل بانفلاته.

الاحتمال من أجله

إن لم يتلى من الإنسان بالكرامة والقماة، ويصبر - من أجل السكون - على العار والهزء والخسارة وحتى على الضرب، ويسخر به، ويظن به من جميع ناظريه أنه أحمق تائه؛ فلا يقدر أن يقتني خيرات السكون.

المتوحد الذي - من أجل السكون - ما يحتمل التعيير والخسارات والتذمر والاستهزاء والحمقة والضيم من جميع التجارب، ما يمكنه أن يتخلص من الشكوك والمفاوضات المصادفة له. وما يقدر أن يهدأ في السكون.

المتوحد الذي يحب السكون، وإذا انفصل من الذين يلتجئون في السيرة التي لها خارج السكون: إن توجع من كلامهم ولم يحمل عنفه فافعالهم بفرح وبصلاة عليهم، بل أراد أن يتكرم ويمتدح منهم، ويرى أنه يجب أن يحس بأهلية القديسين؛ هذا إنما هو ماسك زي السكون فقط بخيالات الفنطسة، بتخايل من الشيطان عدو القديسين الخفي.

إن كنت تحب السكون - الذي هو أبو التوبة - حب بلذة الخسارة التي تكون للجسد واللوم والظلم اللذين يصبان عليك.

وبدون هذا ما تقدر بالحرية أن تعيش بلا تجس ... فإن كنت تحتمل أولئك، فإنك تقتني السكون كإرادة الله.

محب السكون هو منتظر الموت أبداً". ومن هو غير ذلك، لا يقدر أن يدوم في السكون.

إن كنت تظلم ويهزأ بك، أو تعدم ما هو لك، وما يشاكل هذا لأجل محبة السكون، فلا تنزعج. لأن محبة السكون هي انتظار الموت على الدوام. والذي بدون هذا الاهتمام يدخل السكون ويكون له فكر آخر، وما يقدر أن يحتمل الأشياء التي من أجلها نضطر أن نصبر ونقاسي من كل مكان وأن نموت من أجل الله لكي نحيا به.

علامات نجاح السكون وفشله:

علامات:

لا تصدق أنه بالأعمال الظاهرة فقط يكمل تدبير السكون الحقيقي، فإن كنت أن تعرف بالتجربة من نفسك، وتكون لك علامات وإشارات ودلائل خفية من نفسك. فكل قدم تضعها استعلم عن حقيقة آبائنا أو ضلالة الشياطين. وأنا أضع لك منها قليلاً لكي تتكلم في طريقك:

+ إذا كنت في السكون، ونظرت فكرك يستطيع بحرية أن يستعمل حركاته في الناحية اليمينية، وأنك لست تغصب بسلطة على واحد واحد منها، فاعلم أن سكونك مستقيم.

+ وإن كنت في وقت خدمة المزامير، تصنع خدمتك بإفراز خارج عن الطياشة حسب الاستطاعة، وتقتبض الألفاظ من لسانك بدقة؛ وتلقي على نفسك قيود الصمت خارجاً عن الحرية، وتحرث هذا على الدوام:

فاعلم أنك متقدم ناجح في سكونك، وقد بدأت بساحته تتضاعف، لأن السكون الساذج مرذول هو بالعدل. والتجريد الساذج هو مثل العضو العزيز الذي ليست له معاضدة من عضو آخر. هكذا هو محبوب عند ذوي الإفراز.

+ وإن كنت تنظر نفسك مع كل فكر يتحرك فيك وكل تذكار وكل متصل بالسكون تملأ عينيك دموعاً تنزل منها على خديك بغير تغصب، فاعلم أنه قد بدأ الانكسار في مسكن الأعداء.

+ وإن كنت تجد ذاتك في وقت، قد غطس فكرك داخلك من غير أن تقتنى أنت به، خارجاً عن تدبير العادة، ويثبت دقيقة أو ساعة أو أقل أو أكثر، وبعد ذلك تنظر أعضاءك كأنها أرخيت في ضعف كثير، وقد ملك السلام على جميع أفكارك، ويحدث هذا على الدوام، فاعلم أنه قد بدأت السحابة تظلل على المسكن.

+ وإذا ما تقدمت أيضاً في العمل، فهذه العلامات والدلائل تنظر نفسك وتحس في ذاتك: بالرجاء تتشجع في كل أمر، ومن الصلاة تبتهج ولا تعدم مادة المنفعة من فكرك على الدوام، ومن كل شيء تصادفه تحس بالضعف والعجز البشري، لكن بالناحية الواحدة تحتقر هذا من العظمة، وبالناحية الأخرى يحزن عليك زلل قريبك. وتشتهي الانتقال من الجسد بشهوة قرب الأشياء التي نحن عتيدون أن نكون فيها. ومن كل عارض من المحزنات المصادفة لك بالظاهر أو بالباطن تجد أن ذلك قد عرض لك بالعدل بكل تحقيق مبتعداً عن الظنون، وتشكر على الجميع بالاعتراف.

+ أما إن كنت تمكث في السكون زماناً، وتجد أن نفسك تسلطت عليك أفكار مشتتة تمالك إليك بالتعب كل وقت، وينجذب فكرك كل حين إلى الأشياء المفعولة منك قديماً، وتشتهي أن تفتش وتبحث في الأمور

الباطلة: فاعلم أنك على باطل تشعر في السكون، والمعايشة متسامحة على نفسك، ولك أسباب من الخارج، أو أنك متروك من الأمور الواجبة من الداخل. فاستعمل السهر والقراءة، وأصلح أمرك.

+ وإذا ما بدأ الإهمال يخلد إلى نفسك بالسرقة، ورجعت إلى الوراء بالظلام، وقد قرب أن يمتلئ البيت ظلامًا، فهذه العلامات هي قرب نحس خفي في ذاتك بأن إيمانك يضعف، ومن الأشياء الظاهرة قشره، وثقتك تنقص، وتربيتك تخسر. وكل نفسك تكون مملوءة ملامة بالفم وبالقلب على كل إنسان وعلى كل أمر وعلى كل شيء تلاقيه - إن كان بالأفكار أو بالحواس - حتى وعلى الرب العالي. وتخاف من مؤذيات الجسد التي من أجلك يتسلط عليك ضعف النفس، وفي كل وقت ترعب نفسك بالخوف، حتى من خيالك تجبن وتخاف.

+ وإن كنت في حالة دخولك للتجربة لا تجد سلامة لأجل كثرة لذة الآلام، فلا تتعجب من ذلك. لأنه حسب هذا العالم إذا ما غابت عنه أشعة الشمس، فبعد مدة كبيرة تثبت سخونتك فيه. ورائحة الأدوية وبخور اللبان إذا ما انسكب في الفضاء، يثبت زمانًا حتى يتشتت ويبطل. فكم ترى بالأكثر الآلام التي هي مثل الكلاب التي اعتادت أن تلعق الدم في بيت القصاب، إذا ما انقطعت عنها مادة عوائدها القديمة؟!

هذه الأشياء وضعتها للحريصين والمداومين على السكون، الذين يريدون أن يبلغوا تحقيق السير بتدبيرهم. وأما ذوو الإهمال والتراخي فليسوا محتاجين إلى الدلائل الدقيقة وعلامات السقوط، لأنهم بعيدون عن الفضائل الخفية.

وإذا ما بدأت واحدة من هؤلاء تظهر في نفسك، تميز في الوقت إلى أية ناحية قد ملت، ومن الحال تعرف من أي نوع هي.

تنعمات لذوي السكون الناجح :

- تحس أنت في ذاتك أن قوة السكون قد حلت على النفس، بذهول وسلامة بغير العادة تولد في الفكر. وينخطف العقل دواماً من غير الإرادة بحركات غير متجسمة لم يؤذن للحواس أن تشرحها. ويتقد فيك بغتة فرح يصمت اللسان بتنعمه بغير قياس. وتفيض حلاوة ما من القلب على الدوام تجذب كل الإنسان بكده. ومن غير أن يحس يقع في وقت وقت في تنعم وسرور في الجسد ما يستطيع لسان جسداني أن ينعته. فتكون جميع الأرضيات عنده كالرماد والزبل ولا تأتي على فكره.
- أما تلك الأولى فتكون في وقت الصلاة، وفي وقت القراءة، ووقتاً في الهذيذ الذي يتواتر باستمرار على الدوام بهذا الفكر، ويحد العقل. وأما تلك الأخرى فبالأكثر خارج هؤلاء تكون.
- وكم من وقت في أي عمل كان، وفي الليالي بهذا القصد بين النوم واليقظة، يكون وهو نائم مثل من هو غير نائم، وإن كان مستيقظاً فكمن هو غير مستيقظ. يتحرك هذا التنعم في جميع جسمه، حتى يظن الإنسان في ذلك الوقت أن ملكوت السموات ليس شيئاً غير هذا.
- تميز في نفسك إن كانت النفس قد اقتنت قوة لتدرك المتذكرات المحسوسة بواسطة قوة الرجاء والأمل الذي قد ملك على القلب، وتجمع الحواس الداخلية باقتناع لا تفسير له.
- وإن كان القلب يتيقظ من غير احتشام ليسبى من الأمور الأرضية بسبب المفاوضة التي لها بغير انقطاع مع العمل الدائم مع تخلصها.
- واقتني أيضاً إفرازات رحوات المفاوضة إذا ما سمعت أن السكون الذي هو بغير انقطاع يذيق هؤلاء بسهولة للنفس بدوام عمله. وتبيد هذه التنعمات أيضاً وتضيع بعد وجدانك، لأجل ترك وسن وإهمال نائلك. ومن بعد مدة توجد.

+ بهذا يجسر الإنسان أن يقول بشدة النية مقولاً بثقة، تلك التي قالها بولس الرسول "إني واثق أنه لا موت ولا حياة ولا الأشياء الحاضرة ولا المزمعة - مع بقية القول - تقدر أن تفرزني عن محبة المسيح. ولا ضيقة ولا عرى الجسد، ولا جوع ولا ظلم أنس، ولا حبس ولا سيف ولا خطر، ولا ملائكة الشياطين ولا جميع قواتهم وحيلهم المملوءة شراً، ولا المديح الباطل بخداعه وملقه الذي يجذب، ولا المذمات والهوان مجاناً".

إن لم تكن لك هذه التنعمات:

إن كانت هذه النعمات يا أخي ما بدأت تظهر في نفسك، بتجزؤ أو بقليل أو بكثير، فاعلم أن عملك وصلواتك وسكونك كلا شقاء وتعب مجاناً.

ولو أنك تصنع العجائب وتقيم الموتى، فليس هذا يقاس بتلك. ينبغي لك أن تعرف ذاتك، وتسأل محيي الكل بدموع أن يرفع الحجاب عن الباب، لكي تنقشع سحابة ظلمة الآلام عن الرقيع الداخلي، لتؤهل لنظر إشراق شمس البر، لئلا تكون جالساً في الظلمة إلى الأبد كالميت.

السهر الدائم مع القراءة وضرب المطانيات بينهما متواتراً، لا يبطل زماناً في أن يمنح هذه الصالحات للحريصين. والذين نالوها بهذا وجدوها. والذين يريدون أن ينالوها، فبهذا يمكنهم أن ينالوها.

وإذا داموا في السكون مع العمل بهذا، ولا يرتبط العقل بشيء، ولا بإنسان خارج عن ذاته قط، بل بأعمال الفضيلة التي من الداخل يكون عملك بذل واتضاع، فمن قريب نؤهل لهذه ونجدها في نفوسنا.

إنما الحسن الحقيقي الذي من هؤلاء جزئياً، تحتويه البقية بثبات

والذين بثباتهم في السكون، أخذوا تجربة محبة الله، ليسوا محتاجين إلى اقتناع كثير، وليست تضعف نفوسهم من عدم الإيمان كالمنقسمين على الحق. فشهادة ضميرهم فقط فيها الكفاية أن تقنعهم أكثر من ربوات كلام بغير تجربة.

لمن يكون السكون ومتى؟

لكل أحد:

في الأزمنة القديمة كان آباؤنا القديسون يأذنون لكل أحد بالسكون في الهدوء: الرجال والنساء، والصبيان والشيوخ، والحكماء والسذج.

كان الآباء - كل واحد في زمانه - يأمرون الإخوة بالجلوس في السكون. لما نظر الآباء تضاعف الوجوه، أذنوا أن كل واحد يتدبر حسب قوته وحسب معرفته وحسب حرارته وحسب معونته من النعمة، ما خلا أن يكون صبيا ساكنا.

فالضرورة تلجئ الذين يهتمون بخلاص نفوسهم ويشتاقون إلى محبة ربنا وتكميل وصاياه المقدسة، أن يداوموا الثبات في السكون، كل واحد حسب رتبته.

حتى السذج:

الذين هم غير دربين ولا فاهمين الكتب، ولا مهذبين الأفكار، ولا عارفين في الحركات، ولا فطنين بالمعرفة، بل إن سذاجة مخالطة بمزاجهم، وقلبهم بليد وأبله في الكلام والمعرفة ويريدون أن يرضوا الله بتدبير السكون؛ فلا يخافون من قتال الشياطين ولا يرتعبوا من مجاذباتهم. لأن كل واحد حسبما يقدر أن يحتمل وحسبما يليق به، يتجرب من قتال أفكار الشياطين وأشكالهم.

حتى المبتدئين :

اعلم أنه في أيام القديس مقاريوس ما كان مثل زماننا نحن. ولو تكون أيامنا مثل ذلك الزمان الذي كان فيه القديسون ما كانت هناك ضرورة على الإخوة المبتدئين تلجئهم إلى الحبس في أسابيع محدودة.

لأننا نعلم من الكتاب الذي وضعه القديس مقاريوس أنه بالكلية لا يخرج الأخ المبتدئ من قلايته في وسط الأسبوع.

حتى ضعاف الجسد :

والسبب في أني أطلت هذا الفصل أكثر من البقية، هو أنني أرى أن ليست خسارة قليلة قد حصلت للكثيرين في هذا الأمر. إذ يصلون إلى تدبير السكون لأجل استعفائهم وتواضعهم وحرارتهم الكثيرة وازدرائهم بالعالم. وبسبب أنه ليست لهم قوة جسد في الأعمال - أعني ما يقدرون أن يصوموا ويسهروا ويعملوا بالجسد مثل كثيرين - يقطعون رجاءهم من السكون!!

وكثيرون من الحكماء المفتخرين بالجسد يعطلونهم بكلامهم الخرف عن هذا العمل، أعني الحبس والانقباض مع أنفسهم، الذي هو عظيم وعجيب جداً، الذي ما حظي به إلا أفراد قليلون فقط بنوع الموهبة والإنعام من الله سبحانه. لكي بضعف أعضائهم يتشجعوا فيصبروا على الوحدة وصعوبتها والعمل وحزن القلب الذي ينفر ويرجف منه الشجعان الجبابرة.

ما عدا سكنى البراري :

السكون في البراري والجبال لا يليق بكل أحد، بل بأناس عارفين قد نجحت فيهم المعرفة، وتزايدت محبة المسيح في قلوبهم، واقتنوا صبراً واحتمالاً كثيراً.

فترة المجمع أولاً :

ولكن نعمل هذه الفضائل أولاً في المجمع. وبعد أن نتخرج ونتدرب، ندخل إلى السكون.

المتوحد الذي في زمان الظلام وعمل الجسد، يختار لنفسه راحة حرية لبدنه،

في زمان الراحة الحقيقية يبكي ويتضنك بالندم.

المتوحد الذي في زمان جمع أثمار الفرح يملك عليه الندم والحزن، هو شاهد على نفسه أنه في زمان الزرع وخضوع الطاعة للمجمع ما صبر على صعوبة البرد والجليد ليشق المحراث الروحاني خطوطاً عميقة في أرض قلبه ليحفظ فيه بذار خبز الحياة. لذلك فهو الآن في زمان الحصاد يتضنك بالجوع.

كل من يجلس في القلاية ولا يغلق بابه جيداً، يتقلى داخلك كما في الجحيم، ولا يكون لفكره راحة. وإذا ما خرج من قلايته ما يقدر أن يمسك ذاته لا بالحواس ولا بالحركات الداخلية، ويبقى مثل حجر نجس في أسواق المدينة قدام كل أحد.

لأنه في الأيام التي كان ينبغي عليه فيها أن يكرم ويريح كل أحد، كان منتفخاً قاسياً طالباً كرامات في خبز وبقل، أو أنه قد خدم وأكرم ونيح آخرين، لأجل غية ما وليس بفرح وقصد مستقيم ومحبة حارة.

ثمار فترة المجمع:

كل من في أيام عبوديته - أعني طاعة المجمع - مشى باستقامة من غير تردد وإهمال، وتأمل بفكره بعيد المقام في تنفيذ الأمور الصالحة، ويؤمل بشوق وفرح قلب ويفكر كيف وبماذا يزيد على تجارته: هذا لما تتواتر عليه التجارب والصعوبات والأشياء المحزنة وقت جلوسه في السكون، تفيض في قلبه رجاءً وعزاءً. ولو يظنه أنها مضغطات، إلا أن حملها يكون عليه خفيفاً، ويفرح بها ويصبر عليها، إن لم يتخلف عن غرض قصده الأول ويشتبك بأشياء أخرى غريبة عن طريقه.

وحتى إذا ما خرج من قلايته فإن تلك الراحة التي له داخل القلاية تنسكب على عينيه وعلى فمه وعلى يديه وعلى رجليه، وباقتصار على نفسه من داخل وعلى جسده من خارج. ولا ينحصر فكره بأشياء من أنواع التفصيل

بل يكون مملوءاً فرحاً ورجاءً بالله وإيماناً في جميع ما يصادفه. ويتاجر في الحياة بجملة بالأشياء التي يظنه بل أزلي تخسم.

لأجل أن الرب جاد عليه بهذا، ومنه أخذ سلطاناً. فما تستطيع العوارض الضدية المناصبة للحرب أن تسلبه حريته لا من داخل ولا من خارج.

ويعترف كل يوم بقلب منسحق متضع وبحركات مطأطئة لله مبررة ويقول: ,,أبي الذي أعطاني لهو أعظم من الكل، وما يقدر أحد أن يخطف من يد أبي شيئاً". ولا تكون له أبداً فكر حركة تهدس بشئ أبد من أعماله واستقامة قصده وجد مثل هذا السكون.

حتى أنه ليس إذا كان جالساً داخل قلايته فقط يعطيه الرب هذا، بل وإذا كان خارجاً، بتوجيه النعمة وبواسطة عمله الخفي الذي من أجل قهر القتال البرانية التي بالحواس.

مثلما علم أرسانيوس: السكون الحقاني هو حفظ القلب الذي تولد منه الطاعة والاتضاع. ومن سكون الجسد ومن توجيه النعمة.

ولما وجد هذا الآباء القدماء، منهم من كان يطوف في المدن والشوارع، وأظهروا أن نفوسهم سيرة كاملة بالجسد مع حفظ حقيقي للعقل، الشئ الذي إنما يعمل في البراري القفرة والمواضع غير المسكونة. وهم ضبطوا في سائر أنواع إفرازات أعمالهم ووصفوا هذا العمل كالإسراج والعَلَم تجاههم، وقبالته صوبوا سيرتهم.

واقتنوا قلاية يدخلونها كل وقت، وبيتَ ملجأ يستترون فيه من الفاني الشرير بمعرفة المسيح المقدسة. وعلى الدوام هم قائمون بالسكون داخلاً وخارجاً، ويتشبهون بنور وجه المسيح الذي له المجد وعلينا رحمته إلى الأبد آمين.

... وهذه الأشياء تحصل للذي تعب وأطاع بفحصه مستقيم واتضع وخضع في وقت الجهاد، إذا لم يكن له غرضاً ما خلا النظر الدائم

إلى السير. ومن جميع تصرفاته يصلي لكي يكون حسب إرادته.

تقصير فترة المجمع:

الذي هو كامل بالقامة، وفيه اشتياق إلى الله: من بعد ما يخرج من العالم، ينبغي ألا يقيم كثيراً في المجمع. بل إذا تعلم ترتيب وتصرف الإخوة، وفحص هذا التسليم ونوع اتضاعهم، يفرز نفسه في قلاية منفرداً. لئلا يقتني اعتياد الخلطة بالكثيرين. ما خلا مفاوضة شيخ واحد مشهود له بحسن السيرة ومعرفة سيرة السكون.

الذي هو كامل بالقامة، ومقتني تشوقاً إلى الله: من بعد خروجه من العالم، لا يليق به أن يمكث في المجمع وقتاً كثيراً بالدخول والخروج مع كثيرين. بل بعد وقت قليل، إذا ما تعلم تقلب الإخوة وترتيبهم، ونوع التسليم وزيه واتضاعهم، يفرز نفسه ليكون منفرداً في قلاية. لئلا يقتني مع كثيرين اعتياد الكد، وتنقلب بساطة بداوته من مفاوضة الإخوة المتخلفين الذين في المجمع.

لأني نظرت أن كثيرين عند خروجهم من العالم - لما جاءوا إلى مجمع الإخوة - كانوا ودعاء أنقياء. ولما أن مكثوا زماناً كثيراً في المجمع، حتى صاروا ماكرين وفجار، ولم يعودوا يجدون تلك الوداعة الأولى.

متى وكيف؟:

وأيضاً في الأيام الأخيرة، لما كثرت المجامع، وبدأ الانحلال يتواتر، وبردت الحرارة، فإن الآباء الذين وُجدوا في تلك الأجيال، أولئك الذين خلّصوا نفوسهم بالأعمال النشيطة، بالحبس والسكون في القلاية في مجمع كثيرين: عندما أحسوا أنه قد بدأت تظهر فيهم ثمار الروح، التجأوا إلى السكون الدائم.

الذي قد بلغ إلى تدبير الثاؤريا ومعرفة الروح، ينبغي له جداً الوحدة
والسكون في موضع سكنه.

وإنما يفعل برأي المعلم وإذن المرشد، وبمشورة الآباء وصلوات إخوته ينتفع
وإن لم يقبلوا منه في الأول، يداوم الطلبة إلى الله بحزن ودموع
ليحوله في قلوبهم ما يليق بمنفعته.

ولا ينبغي للإنسان - إذا طلب شيئاً من ربنا أو من القديسين - أن
ينال مسألته سريعاً. بل يثبت في الطلبة مدة وبعد ذلك تعطى له.
ولا يظن إذا تعوقت عنه الموهبة أن مسألته ليست لها إرادة الله.

كرامة السكون وأفضليته

كرامة السكون:

العمل الأول في الفضيلة هو السكون.

إذا ما وضعت كل عمل التدبير في ناحية واحدة، والسكون في ناحية أخرى،
لوجدت أن السكون يرجح أكثر.

ولذلك هو عالٍ وأفضل من جميع الفضائل عمل السكون.

لا تظن أنه يوازن كل التدبير والعمل فيه، أن يكون الإنسان غير معروف
ولا محبوب، وأن يبتعد عن كل أمر وكل شيء، لأن العبد إنما يحرث ويتزكى
ويحفظ من كون الإنسان غير معروف.

السكون يصلح جداً لعمل الله. لأجل هذا انفصل القديسون حواسهم من
العالم. وبعد هذا اهتموا باستعداد القلب بعمل الله الخفي.

العظات الكثيرة التي للآباء - إذا ما تقدم الإنسان إلى السكون - فضلة
يكون عمالي عنده، لأنه قد ارتفع نور هؤلاء، وقد دنا إلى حد الغاية.

وأيضاً العظات مضيئة على السكون.

حب النوم الأول في السكون، لأنه خيالات أحلامه أنفع من أفكار اليقظة التي تكون خارج السكون.

صدقني أنه سعيد ومتوكل لله، الذي يأكل كل يوم وينام، وهو مداوم على السكون وصعوبة الوحدة جميع أيامه، ولو أنه دفعة واحدة في الزمان يتنهد على نفسه وهو حزين ملقى قدام الله.

تميز أن كثيرين أو لعل جميع النصارى يكملون أعمال الجسد بشجاعة وحلاوة، وكل الفضائل المذكورة يعملونها بفرح. أما على السكون فما يجسرون.

لا تحزن أيها الشيخ الضعيف الجسد الساكن في الهدوء لأجل أنه ليست لك أعمال جسدانية، لأنه نصيبك أعظم من أولئك الذين يعملون الفضائل الكبار وهم خارج السكون.

عظيمة هي الموهبة التي حظيت بها، وهي السكون بتجلد ومحبة، أفضل من كل أعمال الجسد.

مثال جداً وفاضل هو محب الملك وصاحب سره ومجالسه على المائدة، أكثر من جميع الشجعان والجبابرة الذين يصنعون القتال وينتصرون في الحروب الشجعان ذوي الأهوال.

نرى في أفعال الملوك الأرضيين أن الذين يخدمون الملك هم جليلو القدر ومرتفعون بدرجاتهم ومتداخلون في أسرار الملك لوقوفهم قدامه في كل وقت، أكثر من الذين يصنعون الأعمال الخارجية بالحب مع الملك.

هكذا أيضاً في الأمور الإلهية: نرى أن الذين يتفاوضون مع الله بالصلاة في كل وقت، لهم دالة قد اقتنوها من الهذيذ فيه. وقد سلطهم على ثروة سمائية وأرضية، وأظهر سيادتهم على كل الخليقة، فيخضع لأمرهم ظاهراً بغير مقاومة كل الناطقين والصامتين بكل وقار وكرامة، أفضل من الذين - بالأشياء الأرضية واقتناء الأمور - يخدمون الله ويرضونه بالبر الذي يصنعونه مع البعيدين رفاقهم.

أفضل من العلمانيين الأبرار ورهبان المجمع :

عار عظيم على المتوحد الذي يعد بكمال السيرة، وعنف عظيم وتحقير في حقه، أن يوجد تدبيره مساوياً لتدبير من هو خائف من الله وبار ومهتم بعمل البر، الذي هو علماني ومتزوج.

لأنه إن لم يكن الراهب مرتفعاً عن جميع البشريات، شاخصاً في كل وقت في الله بالتدبير في السكون، ما يعرف أنه أفضل من العلماني البار. لأن العلمانيين الفضلاء يعملون الفضائل الظاهرة بأجسادهم وبالصدقة، ولا يكونون بالتدبير الخفي الكامل الذي للمتوحدين.

وينبغي عليهم أن يعرفوا: أنه كما أن النفس أفضل من الجسد بطبيعتها، كذلك التدبير الخفي بالسكون هو أفضل من تدبير العلمانيين الظاهر.

وكما أن تدبير الملائكة أفضل من عمل الناس، فكذلك تدبير العقل بالسكون أفضل من تدبير الرهبان بالمجمع وفضائلهم التي تشبه فضائل العلمانيين الأبرار.

وكما أن حب الله أشرف وأرفع من حب الناس، فكذلك عمل المتوحدين أفضل من عمل العلمانيين الصديقين، لأن العلمانيين بمحبة الناس يرضونه، والمتوحدين ما يشتهون شيئاً مما في السماء أو في الأرض إلا إياه وحده. لأنهم تعروا بإرادتهم من كل شيء، وألبسوا ضميرهم نظر الله وحبه.

ولذلك هو عالي وأفضل من جميع الفضائل عمل السكون.

بالحقيقة عمل مائة أخ في السجس والمفاوضة، يصومون ويصلون، ما يساوي عمل متوحد واحد جالس في السكون ولو كان ضعيفاً. ما خلا أن يكون عادم الخلطة ومفاوضة الناس، ومتجلداً داخل بابه بغير انقطاع، وليس من يدخل إليه ولا من يخرج.

صلاة واحدة يقدمها الإنسان لله وهو وحده، خير من مائة صلاة يصليها مع الناس.

بالحقيقة إن عمل مائة يوم صوماً وصلاة يصنعه المتوحد بسجس ومفاوضة

ما توازنه نوم ليلة واحدة في الوحدة.

من الهدوء وعدم الحياط والاضطراب يقتني الإنسان بسهولة طهارة القلب وبساطة الإيمان، ويؤهل للمنارة. إن هو حفظ حقوق السكون واحترس بواجبات السيرة، وكان يهجس دائما بمخافة الله. حينئذ يقول الإنسان ما في ضميره وقلبه، وينجذب بمنارة المحبة وعشق تدبير السيرة التي أحب

أما الذي يسكن في الجمع، فهو مثل الذي في السوق. وحتى لو أغمض حواسه، لا يمكنه أن يفلت من الملاقاة العائقة والخسارة التي تصادفه بالضرورة. وهكذا، بالنظر والسمع والكلام والأفعال وتغير العوائد واختلاف خصال الذين يسكن معهم يتحول للضير وينتقل إليهم ويفقد ماله.

وإذا طار ذهنه بأجنحة الروح إلى بلاد السلامة الداخلية ومنازل النور مثل سابق عهده، فإن نظرته تنفصل من ظلام الهيولى الذي يحيا فيه، ويغيب من النظرة الروحانية. وعندما ينتبه وينتصب ذاته ويلقي عنه الأشياء الأولى، يرجع أيضاً ويقبل أشياء أخرى وخصالاً جديدة.

الرديء المتضع المعترف بعجزه من تعطله عن تكميل كل قوانين أعمال الجسد، وهو منقبض إلى ذاته وعائش بالعوز والمسكنة، والمتهم إلى نفسه، وحامل ثقل ضعفه بشكر وحزن قلب: هذا أخير قدام الله من تكميل القوانين مع حياة منحلة وانطلاق الفم وطموح الحواس وتسيبها.

وكما أنه لا يمكن للميت أن يحس بأمور الأحياء، هكذا المتوحد المدفون داخل السكون كما في قبر، تكون نفسه خالية من روائح الجسد ومن إحساس الأمور المتصرفة فيما بين الناس.

يا صديق نم في البطالة أو طف بالخلاء في الجبل أنت وحدك، ولا تذكر سائر شيء من هؤلاء [من الأحاديث الباطلة] ولا تتصور ذاتك القرب والدنو من معتاديك. وعند ذلك تعرف كم تنفع البطالة مع الوحدة أكثر من الساعات الباطلة.

لأن الإنسان إذا ما انقبض عن مفاوضة الناس، رجع إلى ذاته وإلى تقويم تدبير سيرته حسناً قدام الله.

أفضل من الخدمة وعمل المعجزات:

الذي قد أحس بخطاياه، يعرف أن الوحدة خير له من أن ينفع المسكونة بمنظره.

والذي يتنهد على نفسه ساعة في الوحدة، أفضل من الذي يقيم الموتى بصلاته، ومسكنه في الناس.

والذي استأهل أن ينظر نفسه، هو أفضل من الذي استأهل أن ينظر الملائكة. لأن هذا بعيني الجسد يشاركهم، وذاك بعيني الروح يرى نفسه.

والذي بالحزن والنوح في الوحدة يلحقون بالمسيح، أفضل من الذي كل يوم يمدحونه في المجامع.

خير لنا أن نستنشق الحياة بالعمق الكل من أن نغري الأحجار بالاستشهاد.

والذي يبني نفسه خير له من أن ينفع المسكونة جميعها. خير له أن يأخذ الحياة من أن يقسم الحياة للآخرين.

العمل الذي بين الناس فيه افتخار. والضعف الذي في السكون فيه انسحاق قلب.

لا تقس صانعي الآيات والمعجزات والقوات في العالم، بالساكنين بمعرفة في الهدوء. لأن الأفضل لك أن تحل ذاتك من رباط الخطية من أن تعتق عبيداً من العبودية ومن كثرة أسرهم.

اصطلح أنت مع ذاتك باتفاق الثالوث الذي فيك - أعني النفس والجسد والروح - أكثر من أن تصلح المتخاصمين بتعليمك.

لأن الثيئولوغوس يقول: حسن هو الكلام عن الله تعالى لجلاله.

وأجل من هذا أن يطهر الإنسان ذاته لله سبحانه.

الأفضل لك أن تكون قليل الكلام مع أنك عالم كامل وذو معرفة

بتجربة الأشياء بداخلك، من أن تفحص أي تعاليم مع حدة عقل من الشباب السذج والنشط.

الأهم لك أن تهتم بإقامة ميتوتك من الآلام إلى الحظو بالله، أكثر من إحيائك أمواتا.

كثيرون صنعوا قوات وأقاموا أمواتا، وتعبوا في رد الضالين، وعملوا عجائب عظيمة، وبسببهم أي بإرشادهم اهتدى كثيرون إلى معرفة الحق. وبعد هذا سقط هؤلاء الذين أحيوا آخرين في آلام نجسة مرذولة وأماتوا نفوسهم، وصاروا شكا للذين آمنوا على أيديهم بما ظهر من انقلاب عملهم في الأرض. لأنهم كانوا مرضى النفوس، ولم يهتموا بإيراد الصحة عليهم، بل اندفعوا إلى بحر هذا العالم رغبة في أن يعالجوا نفوس آخرين وهم بعد مرضى. فأهلكوا ذواتهم وخابوا من رجاء الله تعالى على الجهة التي قلتها.

لأن ضعيف الحواس لا يقدر على ملاقاة لهيب الأمور التي من شأنها أن تشجع ضغط الآلام على الذين هم بعد محتاجون إلى التحفظ والاحتراس: أعني ألا ينظروا نساء، ولا يلتمسوا نياحا، ولا يقتنوا مالا ولا أثاثا، ولا يرأسوا آخرين، ولا يتراءفوا على قوم آخرين.

انظر أن صنائع الصدقة ومكافأة محبة القريب بأمور جسدانية يوجدون في العالم. وأما السائرون في تدبير السكون بالواجب والمتفاوضون مع الله، فيوجد منهم قليلين وأفرادا.

ومن هو - من هؤلاء المتدربين بالأمور وصنائع البر بأشياء جسدانية - الذي يستطيع أن ينال واحدة من المواهب التي ينالها من الله العاملون في السكون؟!

أنا أعرف أنه قد صار في أولئك فضل. ولكنهم ليسوا مثل الذين بالصلاة وبرفضهم كل الأشياء - أرضوا الله. وهم أنقص منهم جدا.

ثمّ تحمل يديه على سبيل تاملة، ومن أنواعه وزنه يعلمك التواضع، ويؤهلك لمرتبة ما ويكملك فيك، ويعلمك الطريق ويكملك قريباً.

وثمة آخر يطوقك على جانب الطريق بنشاط، ويضع قدامك سفراً طويلاً. وإذ يكون المدخل قدامك، يمنعك من أن تتقدم، ويجعل سيرك دوامة كبيرة.

والاثنان يوصلان إلى رب واحد من جهة العمل بهما. لأنه ليس كل أحد يتقبل الذي هو عظيم محدود وهو قريب.

فالذي يقرأ يفهم معنى القول.

شذرات من الآباء:

وأظهر [الأب مرقس] أن أعظم الفضائل التي يحفظ بها المتوحد يوماً بعد يوم هي أن يثبت في السكون.

قال: «نبدأ الآن بالعمل. وما هو هذا العمل؟ هو السكون، وهدم الأفكار، والصلاة بلا فتور»

مكرم أيضاً ومحبوب تدبير السكون - ليس فقط عند الآباء المتوحدين - بل عند معلمي البيعة الكبار.

وتعرف هذا مما قاله القديس باسيليوس ويوحنا ذهبي الفم، إذ لم يسميان الاخوة الحبساء متوحدين وصديقين كاملين، بل شهداء عظاماً.

ولما أراد اغريغوريوس أن يعرف أخاه أنه بدون الصمت والسكون لا يستطيع أن يتكلم، قال: «إن سياجك - إن شئت - هو بستان عقلي الروح، موضع المصاف الذي به تضفر الأكاليل». أعني أنه مثلما تجمع الأزهار بعناية - داخل سياجات البساتين - التي تضفر منها أكاليل البر، إذا ما سكنت في الهدوء.

حوّط عليك سياجاً خارج قلايتك، وداوم على الأعمال المرضية لله.

هذا هو معنى قوله: إن شئتَ، سياجك هو منافع الروح.

وآخر من الآباء قال: إني ما وجدت غبطة في الفضائل مثل أن يبعد الإنسان ذاته من جميع الأعمال، ويصمت عن كل مفاوضة وحديث. وكالمختفي عن معرفة الناطقين.

وفيلسوف آخر قال: ينبغي على الإنسان محب السكون - ليس فقط أن يصمت ويهدأ - بل ويصنع جهاداً مع أفكاره، ويقمع آلامه. وهكذا يبلغ سريعاً إلى نقاوة القلب، ويكون مسكناً للحكمة.

السكون أفضل من عمل الرحمة:

تدبيران لا يجتمعان:

قال أحد الشيوخ: إن كنت علمانياً، تدبر بالسيرة الحسنة التي للعلمانيين. وإن كنت راهباً، تدبر بالأعمال الفاضلة التي للمتوحدين. وإن كنت تريد أن تسير في التدبيرين - أعني تدبير العلمانيين وتدبير الرهبان - تسقط وتخيب من الاثنين: لأن عمل الرهبان هو هذا: الانعتاق من كل المحسوسات والمداومة مع الله بتهذيب القلب وتعب الجسد بالصلاة.

هل يستطاع أن نقرن مع هذا الفضيلة العلمانية؟ أو هل يمكن أن تكمل موضع هذا إذا أهملت عمل السكون؟! أو هل يمكن للمتوحد العامل في سيرة السكون أن يكمل التدبيرين، الداخل والخارج، أعني الهم بالله بقلبه، والاهتمام بأمر الآخرين؟

أما أنا فأقول إن الذي يريد أن يسير حسناً مع الله - ولو رفض كل شيء، واهتم بنفسه فقط في تدبير السكون هذا - ليست له كفاءة أن يتدبر بغير نقص في كل واجبات عمل السكون. لأنه عاجز عن حمل أثقاله. ولو أنه

يرفضون كل استعمال وملذات العالم. فكم بالحري إذا أهمل ذاته ووضع نفسه للاهتمام بالآخرين!! إن سيدنا له في العالم من يخدمه ويفتقد عبيده وبنيه. وقد اختار الذين يخدمونه فقط.

السكون أفضل:

وإن كانت محبة صدقة ما يهمس فيك الفكر، فاعلم أن الصلاة بتبتل أرفع من الصدقة.

انظر إن صانعي الصدقة وملكي محبة القريب بأمور جسدانية، يوجدون في العالم. وأما السائرون في تدبير السكون بالواجب والمتفاوضون مع الله، فبعد جهد تجد قليلين وأفرادًا. ومن من بين هؤلاء المتدربين بالأمور وصانعي البر بأشياء جسدانية، استطاع أن ينال واحدة من المواهب التي ينالها من الله العاملون في السكون؟!

وإن كان هذا صعبًا جدًا، إلا أنه ينبغي لنا ألا نأخذ شيئًا من ذوي الدرجات الناقصين في عمل الله، بل من الشطار الحاذقين في طريقنا هذا، ومن القديسين أصحاب هذه السيرة والتدبير، الذين رفضوا الأرضيات وصاروا جندًا للملك ملك السماء، وهم بعد على الأرض، وتركوا الأرضيات ورفضوها دفعة واحدة، ووضعوا أيديهم في السماء.

لأن منزلتك أعلى من الراحمين.

أنا أسألك ألا تنخدع. فإن الرحمة مشابهة لتربية الطفل. وأما السكون فهو غاية الكمال.

ليست الرحمة عملك:

قال أحد القديسين: ليس هذا هو غرض سيرتك وقصدها، أن تشبع الجياع، أو أن تكون قلايتك ملجأً للغرباء. لأن هذه السيرة

تليق بالذين يريدون أن يتدبروا في العالم حسناً. وليست هذه للمتوحدين المنتقين من جميع المنظورات. الذين قصدهم حفظ العقل بالصلاة.

متى داخلتك شهوة الاهتمام بغيرك بنوع الفضيلة، حتى يتشتت ما في قلبك من السكون. فقل لك: طريق المحبة جيدة، والرحمة لأجل الله مقبولة. ولكنني أنا من أجل الله ما أريدها.

هذا هو الحد باختصار: إذا ما أتاك فكر أن تهتم بإنسان لكي يتشتت منك السلام الذي من عادته أن يكون في القلب من ذكر الله؛ فقل له: (طريق المحبة جيدة) هذا التدبير جيد حسن، الذي هو الحب والرحمة من أجل الله. ولكنني أنا أيضاً من أجل الله لست أريده.

حسب قول ذكر السائح لما كان يجري وراء ذلك المتوحد ويقول له ,, من أجل الله قف لي، وإلا أجري وراءك". فأجابه "ومن أجل الله أنا أهرب منك"

تكميل واجبات حب القريب بنجاح الأمور الجسدانية، لهو بأهل العالم والرهبان الذين هم خارج عمل السكون، أو الذين في المجمع المجتمعين بعضهم مع بعض ويدخلون ويخرجون كل وقت.

وهذا يليق جداً بهؤلاء. وليس بالمتوحدين الذين بالحقيقة اختاروا البعد عن العالم بالجسد وبالعقل، ويريدون أن يقيموا في ذواتهم الصلاة الوحيدة بالموت عن جميع الأمور الزائلة والاهتمام كل عمل، وعدم نظر وذكر كل الأشياء، ويخدمون المسيح ليس بعمل مثل هذه الأشياء الجسدانية، ولا بتدبير الأمور الظاهرة، ولا بواسطة الوجوه يتبررون. بل بميتوتة أعضائهم الأرضية حسب قول الرسول. يتعبدون له ويقربون في كل وقت ذبائح أفكارهم النقية، بدل عملهم وأوجاع أجسادهم واحتمالهم الضوائق لأجل الرجاء الذي ينتظرونه.

تدبير المتوحدين هو شبه الملائكة. فينبغي ألا ينزل عن السمائيات

ونرضي الرب بأمور أرضية.

وُجِّه لوم إلى أحد الإخوة أنه ما عمل رحمة. فأجاب لائمه بافتخار „إن المتوحدين ما عليهم فعل الرحمة فضيلة.„

وأما الذي يتدرب بسيرة الملائكة - أعني بالتهذيب النفساني - فليس يلزمه أن يتفاضل بأمور جسدانية، ويلقي ذاته في هم عمل اليدين، وينتظر أن يأخذ من واحد ويعطي لآخر. لأن عمله هو في السماء. وليس يليق بالمتوحد أن يحرك ويزيل فكره من القيام قدام الله للاهتمام بشيء من الأشياء.

وأما أنت فإن كنت تريد عمل السكون، فكن مثل الشاروبيم الذين لا يهتمون بشيء من الأرضيات. وفكر أنه ليس في الدنيا إنسان آخر إلا أنت وحدك والله الذي اهتمامك وهذيذك به، حسبما علمك آباؤنا الذين ساروا قبلك في هذا التدبير.

فإن فكر إنسان أنه أعلى من الأمور الحاضرة لأجل ثبات مداومته مع الله وابتعاده عن كل عمل ظاهر منظور، فاختفاؤه من هذه الأشياء واجب له.

ولماذا؟ لأن عمل الأبرار هو للقوم الذين هم ساعدون من الله، الذي بكثرة رحمته يمنحنا أن نتمم ذلك القول الذي قاله „مهما شئتم أن يفعل الناس بكم، فافعلوا أنتم بهم„، الذي يليق به المجد والتسبيح إلى الأبد آمين.

لماذا ليست الرحمة عملك:

لأن عمل الرهبان هو هذا: الانفصال من كل المحسوسات، والمداومة مع الله بهذيذ القلب وتعب الجسد بالصلاة.

ونحن الرهبان ما نلزم السكون بلا رحمة. ولكننا نبعد عنه الاهتمام

والحياط بقدر قوتنا ونحرص على ذلك. لسنا نريد المصادرة في الأمور الضرورية، لكننا نتوفر على السكون حتى نثبت ملازمين لله تعالى. وبهذا السكون يمكننا أن نزود ونصفو كثيراً من المكدرات ونقترب من الله.

لأنه معلوم لكل أحد أنه لا يؤذن لمن قد ابتعد عن الحادثات والخلطة بالناس والقرب منهم بالكلية، وصار ما تأتيهم لأجل مفاوضته مع الله وحده، ليس يُطلب من مثل هذا أن يخدم الناس.

الزكاوة لا تحفظ مع الخلطة، ولا تذكار الله مع الاهتمام بالأفعال والخلطة بالأمور.

وُجه لوم إلى أحد الإخوة أنه ما عمل رحمة. فأجاب الأنبا بافتكار: إن المتوحدين ما عليهم فعل الرحمة فضيلة.

وأجابه: إن الراهب الذي ما عليه الرحمة فضيلة، ظاهر هو وبيّن أنه هو الذي يمكنه أن يقول للمسيح بوجه مكشوف على ما كُتب: "ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك".

يعني بذلك الذي ما له في الأرض مشيئة، ولا يملك البتة شيئاً ولا يُتعب نفسه في الأمور الجسدانية، ولا يخطر بباله شيء من هذه الجزئيات جميعاً، ولا يهتم باقتناء شيء، وإن أعطاه أحد شيئاً لا يأخذ منه إلا ما به إليه حاجة ولا يحمل بما يفضل عنه. وتكون سيرته كسيرة الطائر.

هذا الذي هذه صفته ما عليه الرحمة فضيلة.

لأنه كيف يعطي غيره شيئاً قد [illegible] هو منه؟!

وأما إذا كانت هذه الأمور ما هي حاصلة ولا قريبة منا، فلنحفظ بعقلنا محبة ورحمة القريب.

وأما إن كنا لا نملك شيئاً من القنية، فما أمرنا الله أن نلقي أنفسنا في اهتمامات واحتياطات لأجل المساكين. ولكنه يطلب منا ما نقدر عليه.

وإن كانت سيرتنا توجب علينا الابتعاد عن الناس وعن نظرهم وسماعهم وعن الاختلاط بهم والجلوس معهم؛ فما يليق بنا أن نترك قلالينا، موضع توحدنا وتفردنا، ونسلم نفوسنا للنذور ونطوف العالم، ونتعاهد المرضى، ونتشاغل بهذه الأعمال. لأنه ظاهر أن هذه الأمور هي انحطاط وانحدار من الأعلى إلى الدون.

قال أحد الشيوخ: إني أعجب من الذين يحسبون أنفسهم في سيرة السكون، لأجل أنهم يريدون أن ينيحوا آخرين بأشياء جسدانية!

وهو أيضاً قال: ينبغي ألا نخلط بعمل السكون اهتماماً آخر أو عملاً ما، ما خلا الأشياء التي تليق بعمل السكون، ونتحفظ في كل تدبير بما يليق به، لئلا تتخبط علينا سيرتنا ونضطرب في تدبيرنا.

إن لم يقتن الإنسان قلبه، ويضبط مراحمه غصباً، لكي يكون بعيداً عن كل إنسان من أجل الله، ولا يفكر في شيء من الأمور الجسدانية، بل في الصلاة فقط، ولا يترك في قلبه اهتماماً ولا حباً للإنسان، فما يقدر أن ينعتق من حس واضطراب الاهتمامات ويكون في السكون بالواجب.

لأن معنى السكون وكيفيته هو الهدوء من كل الأشياء، والفرار من كل الأمور.

فإن كنت في سكونك مملوءاً تعباً واضطراباً، ويتخبط الجسد بعمل اليدين وفعل شيء وشيء، والنفس بالاهتمام بالآخرين؛ فأي سكون اقتنيت؟! لأنه ما يمكنك أن تهتم بأمور كثيرة، وتقدر أن ترضي الله بسيرة السكون.

واعرف هذا من نفسك: بدون رفضك كل الأشياء وكل أمر وكل اهتمام - إن كان من النظر أو من السمع - إن قلت إنك تضبط السكون، ضحك هو. بأسباب كثيرة يعرقلك الشيطان على وجه الخير. لأنه يعرف قصد ضميرك، لكيما يشتتك من هذه الفضيلة الشاملة كل خير.

إياك أن تحب القنية من أجل محبة المساكين. حتى لا تكون ضد قلبك

من هذا الوجه، وتلقي في نفسك خباطًا بأن تأخذ من واحد وتعطي لآخر، وتبيع كرامتك بخضوع الطلب من الناس، وتخيب من حيلك، وتعدم حرية فكرك باهتمامك بالأمور العالمية.

لأن منزلتك أعلى من الراحمين:

إن محبة القريب حسنة ومحمودة، إذا لم يصرفنا الاهتمام بها عن محبة الله تعالى.

الذي هو حريص أن يريح كثيرين، لا يمكنه أن يكون عادمًا أمن الكل بالسكون. لأجل أن الذي يريد أن يحب السجن ويحب السكون، ما يستطيع أن يرضي كثيرين ويداوم السكون.

وأما المنفعة التي تكون للناس من هؤلاء الذين يتفاضلون بالسكون، فهي معروفة: وهي أن يعاضدوهم بكلام وعظ نافع، ويصلوا عنهم وقت الضرورة. وأما خارجًا عن هذين الأمرين، فينبغي على المتوحد ألا يترك في قلبه ذكر إنسان أو اهتمامًا بشيء ما من الأمور الجسدانية. لأن هذا ليس هو عمل الحكمة.

وأما قوله «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، أعني ما يخص القريب وما يخص الله؛ فليست هذه للمتوحدين الساكنين في الهدوء. بل لأولئك الذين يتدبرون بالأعمال الخارجية.

سؤال:

أخ سأل شيخًا: ماذا أصنع؟ لي حاجة وأنا محتاج إليها إما لأجل مرضي أو لأجل ضعفي وإما لأجل أمور أخرى. وبسبب استعمالي لها أتساعد على أن أثبت في السكون.

وإذ نظرت أخًا محتاجًا إليها، انغلب من الرحمة والحنان، وأعطيها له. أو يطلبها أحد مني، فما أقدر أن أرده من أجل الوصية.

وبعد ذلك أحتاج إليك. واحتياجي هذا يلقيني في هموم واضطراب ونجس الأفكار، ويشتت عني جمع العقل والاهتمام بما يليق بالسكون. وكلما أخطط أن أخرج من قلايتي وهدوئي، لأطلبك، وإن تجلدت ولم أخرج، أحصل في ضيقة وشدة واختباط فكر.

ولهذا السبب أنا متكدر ومنحبس على الدوام. ولا أعرف أيهما الأوفق وأيما أصنع أ الشئ الذي يشتتني في الهدوء، وأهتم بحوائج نفسي فقط، وأتجلد في سكوني ومسكنتي، ولا أبقى في اهتماماً كثيراً لأجل إنسان.

وأريد أن تقول لي أيما هو الصواب لي.

الجواب :

كل صدقة أو محبة أو عطية، أو ما يُظن أنه واجب ولائق أو أنه فعل ما لأجل الله، ويبطلك عن السكون، ويفصلك عن ترك العالم، ويشغلك باهتمامه، ويبعدك عن الهذيذ بالله، ويقطع اتصال صلواتك، ويُدخل عليك اضطراب الأفكار، وينسيك مفاوضة القراءة السلاح الذي على الطياشة، ويشتت تحفظك، ويجعلك عوض مسجون - طوّافاً وعوض متوحد مختلطاً، ويثير عليك الآلام التي اندفنت، وينقص نسك حواسك، ويقيم ميتوتك التي مُتَّ بها عن العالم، ويحطك من عمل الملائكة الذي هو الهذيذ بالواحد، ويجعلك في جزء خدام العالمانيين : فلتهلك تلك الحسنة والبر.

أمثلة من سير القديسين :

بماذا أرضى الله القديسون القدماء الذين طرقوا لنا هذه السيرة، المتكلم فيها.

القديس يوحنا التبايسي كنز الفضائل وينبوع النبوة : ألعله بأمور جسدانية كان ينيح إخوته والذين يأتون إليه داخل حبسه ؟!

أليس بالصلاة أرضى الله ؟

أنبا أرساني - من أجل الله - ما كان يفتح فاه ويتكلم، لا لكلام منفعة ولا غيره. وآخر - من أجل الله - كان يتكلم النهار جميعه ويقبل الغرباء الذين يأتون إليه. وأما ذاك، فعوضاً عن هذه اقتنى له الصمت والسكون ولأجل هذا من روح الله كان يسير داخل بحر هذا العالم بسلام مرتفع في سفينة السكون. حسبما ظهر لواحد من قديسي الله لما فتشه وبحث هذا الأمر وما اهتموا ببحث القريب بانحلال أنفسهم .

وإن كان أولئك الذين العالم كله محتاج إلى صلواتهم وتعاليمهم وكلامهم والمنفعة من منظرهم، أكرم الله نجاتهم في السكون أفضل من منفعة الناس كلهم، فكم بالأكثر بزيادة الذي ولا نفسه يقدر أن يحفظ ؟!

وإن أحضر أحد ذكر بولس، أنه كان يعمل ويعطي صدقة، نقول إن بولس واحداً ظهر في العالم كان كفؤاً لكل الأشياء. ولم نعرف بولس ثانياً.

وإن أمور السياسة في التبشير لم تدخل في أفعال العامة. شيء هو عمل التبشير، وآخر هو عمل السكون .

الرحمة موجودة. ولكن متى ولمن ؟

سؤال الأب سيماوند :

لماذا حدد سيدنا الرحمة في تشبيهك بتلك الرحمة العظمى، رحمة الأب الذي في السموات. فاختار الرهبان السكون وآثروه عليها ؟

الجواب :

حسن هو قولك واحتجاجك لي من الإنجيل بقياس الرحمة لتدبير السكون. ونحن لا نضاد لهذه الوصية أو نطلب إبطالها. نعماً قلت بإيرادك النموذج من الإنجيل المقدس. وأوردت رسماً كاشفاً عن السيرة العظمى سيرة السكون، حتى لا نقوم نحن مقابلها أو نطلب إبطالها

لما يتنازل بار

كأمر زائد لا يحتاج إليه.

إن الرب جعل الرحمة في تشبيه الت[illegible]، بما أنه متمهل يقربهم إليه.
هذا الأمر صحيح لا شك فيه. ونحن الرهبان لا نلتزم السكون بلا رحمة.

لنفحص أنفسنا دائمًا لنصير كاملين في كل وقت داخل الرحمة
لسائر الطبائع الناطقة. لأنه بهذا يأمر تعليم المسيح. وهذا هو إقرار
سكوننا. وليس الأمر جزافًا أو كيفما اتفق، بل تلك التي من داخلنا.

ولسنا نحفظ هذا فقط، ولكن متى دعا وقت واضطررنا إلى العمل
بحدوث أمر من الأشياء الضرورية - فما يليق بواحد منا أن يترك ومن في إطار
محبته بالفعل إظهارًا واضحًا.

فإن ألجأتنا الضرورة في وقت ما إلى مقدار من الزمان، فما يليق بنا
أن نترك ونهب بالحب لأجل السكون.

لا نمتهن الاسم العظيم - اسم السكون - بجهلنا. لأن لكل سيرة وتدبير
وقتًا وزمانًا وإقرارًا. ومن خلوا من هذا، بالجهل هو حل كل المهتمين بكل منزلة.
لأن الله عارف الكل، وحسب المقدرة يقبل العمل.

لأن العمل الأكمل - عمل السكون - هو أمر عظيم متى امتزج بالإقرار
الذي له صفته، لأجل حاجة المتواضع. لأننا نُشرف من حيث لا نعلم.

لأنه قيل لواحد من الآباء العارفين إنه ليس شيء ينجي المتوحد
من شيطان العظمة، ويساعده على حفظ العفة في وقت القتال بالشهوة
مثل أن يفتقد الناس المضنوكين في أمراضهم وأسقام الجسد.

واعلم هذا: إن المترددين بالمريضين، ما يبعد ضوءًا. ومن يشيح بوجهه
عمن هو في ضيقة، يظلم عليه النور. والمزدري بصوت المتعب، في الظلام يسلك.

إذا كنا قد عرفنا أنه خلوًا من محبة القريب، ما يمكن للعقل أن
يستضيء في المحادثة والحب الإلهي، فمن هو إذن الراهب من الرهبان الحكماء
الذي يكون له ملبس أو مأكل، وينظر قريبه أو أخاه عاريًا أو جائعًا،

ويحتمل أن يشفق على شئ مما ذكرناه ؟!

أو من هو الذى يشاهد أخاه مريض الجسم، وليس له من يفتقده، ويريد هو لشهوته في السكون، أن يؤثر قانون التفرد والتوحد والسكوت على نياح أخيه أو قريبه ؟!

ولكن ربما يكون إنسانا قاسيا بعيدا عن محبة البشرية، ويكون سكوته رياء. فإن كان يعمل بيديه، ويأخذ أيضا من آخرين، فيجب عليه هو أيضا أن يتصدق ويعطى. لأن إهماله هذا، هو تجاوز ظاهر لوصايا الله. إن كان بخفاياه ما يتفاضل قدام الله بالروح، كما أنه بالأشياء الظاهرة التى تصل مقدرته إلى عمل يديه. فأي شئ يترجى أن يقتني الحياة ؟! وهذا يدل على أنه جاهل.

فإن كان الراهب بالقرب من كثيرين، ومسكنه بجوار الناس، ويتنيح بتعب آخرين في زمان صحته ومرضه، فيجب عليه هو أيضا أن يعمل معهم كما عملوا معه. ولا يكون يطلب نياحه من آخرين.

وإن رأى ابن زيه وابن شكله في ضيق، لا، بل الأولى أن نقول: إن أبصر المسيح طريحا متعبا، فهل يذهب هو وينهزم ويختفي منه، ويتحيل السكون الكاذب ؟! لأن كل من كان هكذا، فهو غير رحيم.

فالذى ينتظر أن يتسلى في وقت مرضه أو ضائقته من آخرين، فليضع هو أيضا نفسه ويستعمل هذا مع أخيه في وقت ضائقته وتجربته. لكي يصير عمله بفرح في وقت سكونه، مبتعدا عن الكبرياء والسكون الباطل وضلالة الشياطين.

سيما أولئك أصحاب السكون الذى حددوه على أنفسهم ألا يلتقوا أحدا إلا بقانون الأسابيع، وأولئك الذين عملوا لهم سكوتا بأسابيع محدودة. لأن هؤلاء من أمور الرحمة للقريب ما يضبطون أنفسهم فيما بين هذه القوانين ليكملوا هذه الأشياء.

فإن كان هو ماسكاً السكون بقوانين الأسابيع، وبعد كمال الأسبوع يخرج ويختلط بالناس، ويتعزى بالمفاوضة معهم، ويهمل الافتقاد بأخيه إذا ما نظره متضيقاً أو مريضاً، ويظن أنه يحفظ قانون الأسابيع، فهذا قاسٍ على الحقيقة. وأمر معروف، أنه من عدم الرحمة، ومن الظنون والأفكار الكاذبة، ما يريد أن يخلط نفسه بشيء من هذه الأمور.

وأما إذا كانت هذه الأمور ما لها حاجة ولا قريبة منا، فلنحفظ بعقلنا المحبة والرحمة للقريب. ولكن متى كانت هذه الأمور قريبة منا، فلنكمل محبة ورحمة القريب بالفعل، لأن الله يطالبنا [في هذه الحالة] أن نكمل ونتمم بالفعل.

وإن أتيت لي بأمر ذكر يوحنا التبايسي أو أرسانيوس ومن يشبه هؤلاء، وقلت لي: «من هو من هؤلاء قد أسلم نفسه إلى مثل هذه الأشياء، أو اهتم بأوجاع المرضى أو المساكين وترك السكون؟»، فأنا أقول لك: لو بعدت عن كل نياح بشري، وزهدت لقاء الناس كما كان هؤلاء، لكان قد أُذن لك أن تطرح هؤلاء ولا تتعاهدهم.

فإن كنت بعيداً عن ذلك وعن طريق الكاملين، وأنت مداوم على أتعاب الجسد، وملازم لمحادثة الناس وقربهم في كل وقت، فينبغي عليك ألا تتهاون بالوصايا التي مقدارك يقتضي حفظها. ولا تحتج بسير الآباء العظماء والقديسين الكاملين الذين أنت بعيد عن طرقهم.

وأنا أذكر عن هذا الأب العظيم، أنه قد كتب عنه لأجل قطع حجج الذين يتراخون بإخوتهم: أنه في بعض الأوقات مضى ليفتقد أخاً مريضاً. فلما سأله عما يشتهيه، قال له: «أشتهي خبزاً طرياً». فمضى ذلك المستحق الطوبى من الإسقيط إلى الإسكندرية - وكان ابن سبعين سنة - وأبدل خبزه اليابس بخبز طري، وأحضره للأخ.

وقد فعل قديس آخر من الآباء - وهو الأب أغاثون - أعظم من هذا،

وهو الذي كان يلزم الصمت والسكون كل أيام حياته أكثر من كل أحد: إذ أنه مضى في بعض الأوقات إلى الريف ليبيع شغل يديه. فوجد في السوق إنساناً ملقى في وسطه غريباً مريضاً. فاكترى له بيتاً، وأقام عنده يعمل بيديه وينفق عليه ويزن أجرة البيت، ويخدمه ستة أشهر إلى أن عوفي وبرئ. وكان يقول أيضاً: إني أشتهي واحداً مجذوماً، فأعطيه جسدي وآخذ جسده.

هذه هي المحبة الكاملة، محبة خائف الرب. لذلك نجد قول الرب: إن سائر الناموس والأنبياء متعلقون بهاتين الوصيتين، وهما محبة الله تعالى ومحبة القريب.

أما إذا كانت هذه [أي محبة القريب] لم يقع في أيديهم عملها وتكميلها. ولو كانت شاقة جداً. فما كانوا يتركونها تفوتهم.

وإنما قلت هذا يا إخوتي. لا لكي نهمل ونزدري بعمل السكون لا أننا في كل موضع نتبع بقولنا لهذا المعنى. ولم نحدها هنا بالجهد ونقاومه لما قلناه! لا يتأول متأول، ولا يخرج مخرج قولاً. أنا أذكر أنني قلت في مواضع كثيرة داعياً وطالباً.

حتى أنه إن عرض لإنسان أن يكون في عطلة كاملة بسبب مرض عرض له، ألا يختار الخروج على البطالة.

ولست أعني بهذا أنه إذا ما اتفق في وقت ما حال ضرورة، نفتش أن نخرج من حبسنا بسببه لكي نربح بهذا نياح أخينا أو حياته، أن نحسب هذا بطالة.

لمن يكون التعليم ومتى ؟

حسن هو أن يعلم الإنسان الناس الخير، ويجذبهم من الضلالة إلى معرفة الحق بمواصلة السياسة. لأن هذه الطريق هي طريق المسيح ورسله. وهي عالية جداً”.

أما إن أحس هذا المرء في نفسه أن ضميره قد ضعف من هذا الحال ومن مواصلة الخلطة ومن تصور الوجوه، وأن هدوءه قد اضطرب ومعرفته قد أظلمت، لأن قلبه يحتاج إلى تحفظ وإلى إخضاع الحواس، وأنه من قبل أن يشفي الناس ويطببهم قد مرض هو نفسه، وأن صحته في اضمحلال وقد خرج من حرية إرادته إلى اضطراب قلبه: فليتذكر قول الرسول واعظاً أن „الغذاء القوي برسم الكاملين“. وليرجع إلى الوراء لئلا يسمع منهم كما في المثل „أيها الطبيب المملوء جراحات، اشفِ وطبب نفسك“. وليدبر نفسه، وليحفظ حسن حاله، وليحفظ صحة ذاته فقط. ولتنب سيرته الصالحة عن أقواله الحسنة، وعمله يعلم بدلاً من كلام فمه.

وإذا ما علم أن نفسه في صحة، حينئذ فلينفع الآخرين ويطببهم. لأنه إذا حفظ نفسه في الصحة، ينتفع منه آخرون، وبعافيته يشفون هم أيضاً حتى إن كان بعيداً عنهم. بغيرة أعماله الفاضلة ينفعهم أكثر من وعظه ونفسه مريضة إذ يكون مفتقراً إلى الطبيب أكثر منهم. لأن المثل يقول: إن إرشاد ضرير لضرير يتسبب في وقوع كليهما في هوة الحفرة.

إن الغذاء الكامل هو للأقوياء، للذين قد تريضت حواسهم وتدربت واشتدت على قبول كل غذاء، أعني على جميع ما يصادف الحواس، فيما يرونه ولا تمرض قلوبهم ولا تتأذى من كل ما يصادفهم، لأجل تدربهم ورياضتهم بالكمال.

والمحتال إذا ما أراد أن يدنس عقل مثل هذه الطبقة بذكر الزنا، فأولئك يمتحن ويختبر عقولهم بمحبة المجد الفارغ ...

ليست كل الوصايا لكل أحد :

كثيرون بشهوة البر يلقون أنفسهم في اضطراب هذه الأمور، فيخيبون من جزاء هذا البر الأعظم. لأنهم يظنون أن جميع إفرازات البر وكل وصايا سيدنا تلزم لكل واحد من الناس، وينبغي على كل واحد منها جميعها !!

وما يعرفون أن وصايا سيدنا قد وضعت لسائر الرتب : لكل رتبة ما يليق بها. وليست جميعها توافق رتبة واحدة حسبما أفرز العظيم في القديسين فيلون. لأنه أفرز وصايا عظيمة تليق بالكاملين مثل قوله : „ اترك كل شيء واتبعني » و „ لا تهتموا بالغد » و „ صلوا في كل حين ولا تملوا » وبقية ما يشبه هذه الوصايا التي ما يقدر أن يحفظها الضعفاء في الإيمان والمبتدئون المفتقرون إلى البقل لكي يطيبوا به أو إلى رضاع اللبن لينموا به.

مثل المرأة الحكيمة التي تقدم لأولادها مأكلاً يليق بتربية قامة كل واحد منهم. لأن الحدث في الإيمان والمبتدئ هو طفل. والكامل في السيرة كالرجل التام، وُضعت له وصايا عظام حسب التطويبات التي أعطاها الرب. فلهذا قلت إنه لا يليق حفظها لإنسان واحد.

كيف يشبه قوله „ طوبى للباكين لأنهم يتعزون »، لقوله „ طوبى لصانعي السلام لأنهم بنو العلي يدعون » ؟!

كيف يقدر الذي هو جالس في النوح ويبكي ليلاً ونهاراً، أن يبذل نفسه ويدور العالم لكي يصلح المتخاصمين، ويصنع السلام بين كثيرين ؟!

أو كيف يشبه قوله „ اسهروا صلوا في كل حين »، وقوله „ ادخل

خزائنك وأغلق بابك وصلِّ لأبيك في الخفاء»، لقوله «كنت مريضاً فافتقدتموني، وغريباً فآويتموني، وسجيناً فزرتموني»؟ الذي أُمر أن يستر ويصلي في خزانته، كيف يقدر أن يفتقد المرضى ويدور على السجون ويحل الاهتمام بالغرباء؟!

بل إن قوله «ادخل خزانتك واستر وصلِّ في الخفاء لله تعالى» يليه بقوله «طوبى للنواحين» فإن بالحزن والسكون تتفق الصلاة، وبالصلاة يقبل عزاء الباكين، الذي لا يمكنه ولا يكمل إلا بالنوح

القسم الثانى

كيفَ يُحفظ السكون ؟

تمهيد

للناسخ

يحفظ السكون بالبعد عن الخلطة، والصمت، وحفظ الحواس، وجمع العقل.
وهذا يستلزم: الحبس في القلاية، والسكن البعيد المنفرد.

وفي الواقع أن كل هذه الوسائط مرتبطة ببعضها البعض كأنها سلسلة واحدة.

لأنه لا يمكن أن يحفظ السكون بدون جمع العقل من طياشته ومن كثرة الاهتمامات، ليتركز في الله وحده.

ولا يمكن جمع العقل بدون حفظ الحواس. لأن الحواس الطائشة تجلب له مناظر وسماعات وأفكارا وحروبا واهتمامات.

ولا يمكن أن يحفظ الإنسان حواسه إن كان جسده طائشا من مكان إلى آخر. فلابد له إذن من الحبس في القلاية.

ويشترط للحصول على المنفعة من حبسه، البعد عن الخلطة.
لأنه حينما يختلط الجسد يختلط الفكر، ويتشتت عن عمله الإلهي.

وإن اضطر إلى الخلطة لسبب ما، عليه بسلاح الصمت، لأن كثرة الكلام تدل على أن الفكر غير منشغل بالصلاة ...

وإذا لم يستطع الراهب - على الرغم من كل هذا - أن يحتفظ بسكوته، فليس أمامه سوى بعد المسكن بالهرب إلى البراري والقفار، لأنه "مجرد منظر القفر يميت من القلب الحركات العالمية" كما يقول مار اسحق.

وبدون التجرد لا يمكن أن يتم شيء من هؤلاء.

١ـ البعد عن الخلطة :

حث للبعد عن الخلطة :

كل موضع تحل فيه، كن منفرداً بضميرك، متوحداً، غريباً بالقلب غير مختلط.

يا ابني حب الوحدة، ولو أنك عاجز عن جميع حقوقك.

كن ميتاً من الكل، لتنعتق من السخنة التي للبشرية بذويه، لأنه ولا واحد منهم وصل إلى تكميلك بهذه الحياة.

حقاً انعتق ميتاً حيث كان حياً، وصار حياً لما مات.

كن ميتاً بالحياة، لتنعتق من ميتوتك.

غريباً احسب نفسك كل أيام حياتك حيثما توجهت، ليمكنك أن تتخلص من الخسارات التي تتولد من الدالة.

مبدأ التدابير المتقنة هو الميتوتة من كل معاوضة الوجوه، بشهوة الأمور الإلهية. لأنه منك يتولد الحب والحرارة لتدبير الجهد.

الميتوتة الجسدانية هي هذه... أن يكون عادماً من جميع الخلطة بالناس والمحادثات والعزاءات المنظورة.

ومن مات بقلبه عن خواصه وأصحابه، مات المحتال عنه.

لا تطلب عزاءً خارجاً عن القلب الذي هو معرفة الإفرازات.

ابتعد عن كل عزاء يحدث بتوسط خدمة الحواس، لتؤهل لذلك العزاء الذي يقتنى من الداخل.

طوبى للمتوحد الذي ضغطته الآلام وعذبته الشياطين، ولم يشتق للعزاء الذي من الخارج.

طوباك يا ابني في ذلك اليوم الذي يدركك الموت فيه وأنت وحدك

في قلايتك. وتنتقل نفسك مع ملاكك إلى الفردوس إلى جوار الملائكة وأرواح القديسين.

إن أكلت خبزك وحدك في قلايتك، يعطيك الله موهبة ممدوحة أن تأكل المسيح مع خبزك وتشرب مع مشروبك بسكر وفرح روحانيين.

وإن أنت اشتهيت المائدة التي من الخارج، يعطيك الشيطان موهبة سمجة أن تأكل أخاك بالمثلبة.

احذر التنزه وكن محترساً، وكن وحدك، واثبت في السكون، لتنجو من العثرات.

طوبى للإنسان الذي يقتصد نفسه من الانحلال، ولا يميل إلى المجاذبات ومفاوضات الناس. إنه يحس بأشياء كثيرة لا يقدر أن يتعلمها من اللحم والدم.

طوبى لمن ابتعد عن الكل بالمفاوضة مع سيده.

لا يعيش مع الناس، لأنه لم يعد بعد يعرف لغتهم. لأنه أهل للغة الملائكة، وبها يرتل خفياً بعقله.

مثلما كتب القديس باسيليوس إلى أخيه اغريغوريوس "المجمع الذي فيه تحمل نفس المتوحد الفضائل، هو الفم واللسان والقلاية التي يرتل فيها ويقدس خفية بلسان الروحانيين تسبيحاً ملائكياً بلا فتور بالقلب والعقل.

كن صديقاً لكل إنسان، وكن وحدك في فكرك. سالم مع الكل في عوارضهم، وابتعد عن الكل بجسدك.

ولا ترتبط بشيء ما ولا بإنسان من غير ضرورة.

إن لم تقدر على الانفراد فكراً، فلا أقل من أن تنفرد جسماً.

لا تقيس كل السيرة والأعمال العجيبة التي فيك، مع أن يكون الإنسان غير معروف ولا محسوب، ويهرب من الكل. لأن العزاء ينشأ من كونه غير معروف ولا محسوب.

أمثلة للبعد عن الخلطة:

يا أخ إن كنت تحب تدبير غاية السكون، الذي ليس فيه حبس ولا تنقل ولا انقطاع في الوسط، الذي به غلب الأولون: هكذا تستطيع أن تتمم شهوتك هذه الممدوحة حتى تتشبه بآبائك، وتأخذ بعقلك مثل الرسم ذكر قصص أولئك الذين أحبوا السكون بالتمام.

جميع الآباء الذين أحبوا السكون والحبس الكامل، لم يعتنوا بحب القريب أن يكملوه بانحلال ذواتهم. ولا من الوجوه الذين يُظن بهم أجلاء كانوا يستحون، بالفرار من ملاقاتهم.

وما اهتموا بحب القريب بإهلاك أنفسهم، ولا من الوجوه الذين يُظن بهم أنهم كرام كانوا يخضعون للقائهم.

وحيث كانوا يسكتون هكذا، فليسوا كمهينين لإخوتهم فعلوا ذلك، ومن الكلام، أصحاب المعرفة لم يُلاموا.

ولكنهم كانوا يكرمون السكون والانفراد أفضل من لقاء الناس.

لأي حال كان الآباء يفرون؟

مار أرسانيوس ما كان يتنيح بلقاء إنسان.

وأنبا ثيودورس وإن كان يصادف أحداً، فمثل السيف الحاد كان في لقائه.

وما كان يسلم سلاماً على أحد إذا عرض أن يوجد خارج قلايته.

القديس أرساني، ولا على الذي كان يمضي ليزوره كان يسلم.

لأنه قيل له من صوت الله: اهرب من الناس وأنت تحيا.

وأيضاً القديس أرسانيوس، ولا على الذين كانوا يجيئون ليسلموا عليه كان يسلم.

وواحد من الآباء ذهب مرة ليبصر أرسانيوس. ففتح الشيخ بابه، وكان يظن أنه تلميذه. وحيث أبصر أنه غيره، طرح نفسه على وجهه.

فطلب إليه الأخ كثيراً وقال «قم يا أبي حتى أسلم عليك عند الباب وأمضي». فأجابه القديس وقال «إني لست أقوم حتى تنصرف». ولم يقم حتى مضى الأخ.

وفعل الطوباني هذا حتى لا يعلمهم الإتيان إليه.

انظر قوة الكلمة. ولا تظن أنه للحرج أبى الشيخ أن يفتح له. ولا أنه كان يحتقر واحداً ويكرم آخر. ولكن بطريقة واحدة كان كل الناس عنده. وذلك في حالة كرامة الصمت والسكون.

وقد علمنا أيضاً أن ثيؤفيلوس البطريرك السكندري ذهب إليه مرة، وكان معه والي البلاد، لكرامته والشوق إلى النظر إليه. وحيث أتوا إليه، ولا بكلمة صغيرة نيحهم لوقارهم، لأنهم كانوا مشتاقين إلى سماعه. وحيث طلب إليه رئيس الأساقفة أن يكلمهم، سكت الشيخ قليلاً وقال لهم «وإن أنا قلت لكم، هل تحفظون كلامي؟» فقالوا له «نعم» فأجابهم الشيخ «حيث بلغكم أن ثمَّ أرسانيوس، فلا تتقدموا إليه».

أرأيت أجوبة الشيخ؟! أرأيت زهده توقيره للناس؟!

هذا هو حقاً الذي كان يعرف أن يقطف ثمرة السكون. ولم يتفكر القديس في أنه أمام رجل شريف ورئيس الكنيسة كلا! إلا أنه كان يتفكر «إني أنا مرة واحدة قد مت عن العالم، وما هي منفعة الميت للأحياء؟!»

ووجهت إليه على هذا ملامة مملوءة حباً من الطوباني مقاريوس، حيث قال له «لماذا تفر منا؟» فأجابه القديس قائلاً بجواب مملوء مدحة «الله يعلم أني أحبكم، ولكني لا أقدر أن أكون مع الله والناس.

ومرة أخرى بعث إليه القديس رئيس الأساقفة من أجل هذا. فبعث إليه الشيخ وقال «إن أنت جئت، فإني أفتح لك. وإن أنا

فتحت لك، فإني أفتح للكل. وإن أنا فتحت لكل الناس، فما أقدر أن أجلس لوحدي.

وهذا الكلام العجيب ليس من آخر قيل له، إنما هو صوت الله علّمه أرسانيوس «فِرّ من الناس وأنت تحيا»

لا يكن إنسان من البطالين ومحبي الحديث يتخذ لأجل ترديد كلامه، ويتهم صاحب هذا الحديث (الحديث). أي أنه بحيلة أنانية طلب السكوت! بل أنه حقًا تعليم إلهي. وما قيل له هذا عن الخروج من العالم فقط، أن يفر من الناس.

بل بعد أن ترك العالم وصار إلى الدير، صلى إلى الله وقال «كيف يا رب أستطيع أن أحيا وأعيش كما ينبغي؟ دبرني أنت كيف أحيا وأخلص». وقد كان يظن أن شيئًا آخر سيقال له. فسمع أيضًا صوتًا إلهيًا ردّ عليه هذه الكلمة وقال له: أرساني، فر، واصمت، واسكن. وإن كان منقطعًا للصلوة وحديثهم نافعًا لك، فما ينفعك أن تشتغل معهم، مثلما تنتفع من الانفراد عنهم.

وحيث قبل الطوباوي هذه بالانكشاف الإلهي، كان قد قال له أولًا وهو في العالم وأمره أن يفر. وحين صار مع الرهبان قيلت له هذه الكلمة أيضًا أن يفر: حينئذ اقتنع وعرف أنه لا يستطيع أن يقتني الحياة الفاضلة إلا بالفرار، ليس من العلمانيين فقط، بل ومن كل الناس بالسواء. ألعله كان يمكنه أن يبطل كلام الله ويضاده؟!

والشيخ أرسانيوس حين كان يتكلم بنفسه، فلأنه كان يكرم السكوت لحال تلك الوصية التي قالت: حب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك، وأفضل من العالم ومن الطبيعة ومن كل حوائجك. وهذا يتم لك ما دمت في السكون.

حسب قول ذلك السائح لما كان يجري وراءه ذلك المتوحد

ويقول له "من أجل الله قف لي وإلا أجري وراءك". فأجابه "ومن أجل الله أنا أهرب منك".

وأنبا أنطونيوس قيل له بالإنكشاف "إن كنت تريد أن تكون في السكون، فليس إلى التبايس فقط تذهب، بل إلى البرية الداخلية".

فإن كان الله هكذا أمر أن نفر من الكل، وهكذا أحب السكون، ومن يثبت فيه يحبه، فمن هو الذي يقبل لكي يدوم في المعاوضة والقرب من الناس ؟!

وإن كان لأنطونيوس وأرسانيوس الاحتراس والانفراد ينفعان، فكم بالأكثر ينفع هذا للضعفاء ؟!

[عن الشيخ البار] ... وكان أكثر خروجه لمعاونة الإخوة يحدث من استحيائه. وكان يغصب نفسه من غير إرادته. ودفعات كثيرة كان يقول لي عن حزنه في خروجه من قلايته. وهكذا كان تدبير ذلك الشيخ.

وإن جاء أحد إلى الوسط بقول بولس الرسول، إذ قال: "أنا أطلب أن أكون محروماً من المسيح بدلاً من إخوتي"، وما يماثل هذا. فالذي أخذ قوة بولس فليعمل أعمال بولس. لأن بولس من الحفز الإلهي كان يتدبر لينفع العالم.

إلا أنه كان يشهد أنه لم يكن يفعل هذا بهواه، بل إنه "اضطرار موضوع علي". فكان يقول "ويل لي أنا إن لم أكرز"... وأيضاً اختيار بولس ليس للتوبة كان قصده، بل ليبادي للسكون. وقوة عظيمة أعطيت له.

عدم المخالطة بالعلمانيين نساءً أو رجالاً :

يليق بالراهب ألا يختلط بالمحاربين له، وأن يتحفظ حتى من النظر إليهم، ويبتعد عن القرب منهم. وقولي هذا ليس من أجل البطن فقط، بل من كل ما يُمتحن به المرء، وتختبر به حرية الراهب.

لأنه في كل وقت يصادم فيه المتوحد بملاقاة العالم، في الحال تضعف نفسه وترتخي، وبالأكثر بملاقاة امرأة ...

ومن الملاقاة الشهوانية التي يصادفها على الدوام، قليلاً قليلاً ينسى المداومة، فينظر العلمانيين وأشكالهم المخلّة، وينسى أيضاً المجد المقدس،

لأن الإنسان إذا ما ود أنه يقترب من الله عز وجل، ينبغي له أن يجاهد على الابتعاد عن كل هذه الأمور التي أصفها وهي : وجه امرأة، ولا يدنو إلى الحسان المنظر (المناظر)، ولا يؤثر التنعم، ولا يشتاق إلى شيء مما لا ينبغي، ولا يطمح ببصره إلى جمال اللباس، ولا إلى ترتيب أهل العالم، ولا يسمع أقوالهم، ولا يكون متعلقاً بهم.

لأن الآلام تتقوى بالقرب منهم، ومن السماع عنهم، فتُمرض المرء المجاهد، وتغير عقله وما شرع فيه.

ليس يخفى عليك أن النظر فقط إلى العلمانيين يؤذي المتوحد، وليس إلى النساء فقط بل والرجال أيضاً.

إن الشيطان إذا نظر المتوحد قد أعد نفسه للجهاد مقابله، عند ذلك بكل سبب يحتال أن يربط عقله بالعلمانيين، لأنه ما يعرف فخاً أقوى من هذا يعده له.

ومن هنا كل وقت يشاء، بسهولة يخضعه في ثلاثة آلام كبار: الحسد، والغضب، والزنا.

إذا ما نظر العدو أن المتوحد قد أعطى نفسه واستعد للجهاد

قبالته وجسر عليه. فقد كل أمر يتحيل بكثرة دهائه أن يجمع الأسباب ليربط عقله بالعلمانيين.

ومن هنا يفيد تعويقه يريد بسهولة أن يخدعه ويرميه في ثلاثة الآثام الكبار: الزنا والحسد، والغضب.

لأنه إذا ما سكن المتوحد آنفاً، وتقيدت يداه ورجلاه بشباكهم، فعمل الدوام يسقط. ويصعب عليه ويثقل جداً الاهتمام بالصلاة وتدبير السيرة والطريقة.

وكل من يشتغل بالعلمانيين، لا يقدر أن يكون متواضعاً.

ولا أحتاج أن أذكر العلمانيين، فإن محادثتهم تؤذي مثل نار في قصب.

إن مفاوضة العلمانيين تجعل في النفس الاحتقار لهم لأجل عمل الله احتقاراً. للإخوة الروحانيين، الحديث الدائم معهم يؤذي. وأما أهل العالم فنظرهم فقط من الخارج يؤذي.

عدم الخلطة بالأقرباء حسب الجسد:

لا يستطيع الإنسان أن يكون بمفاوضة الله ومفاوضة الناس. ولا أن يكون قريباً من أهله الجسدانيين ويقدر أن يدنو إلى شيء من الروحيات. فإن الغربة توافقنا جداً.

المتوحد الذي يريد أن يكون قلبه مسكناً لله، ينبغي أن يفلحه بالأعمال النشيطة، ويهدئه من جميع الحركات الصعبة التي من الغضب والمفاوضات والملاقاة الغافلة والمزح ومن الأكل مع القريب، لأنه بواسطته يسكن الشيطان ويكدر نقاوة النفس.

ما ينبغي للإنسان أن يتخير استرضاء الأفكار عليه، ويقول إنه

لا يمكن هذا ويبطل السكون. لأن الطبيعة التي لا تُغلب، غلبت القديسين:
نعرف إثنين من القديسين أنهما كانا أخوين بالطبيعة. مرض
أحدهما، وكان الآخر قد حبس في قلايته، وصبر كل زمان مرض
أخيه لا يخرج ليبصره. ولما دنا موته، بعث إليه قائلاً:
„ تعالَ الآن حتى أبصرك قبل موتي ولو بالليل، لكي أسلم عليك
وأستريح“. فلم يجبه ولا في الساعة التي تحرك فيك الرحمة والشفقة
للطبيعة أن تغلب الهوى. حيث كان يقول „ إن أنا خرجت، لا
يكون قلبي نقياً قدام الله حينئذ لا أفتقد بقية الإخوة الروحانيين.
وهل ما للطبيعة أكرم وأكثر مما للسيد“. فمات أخوه ولم يبصره.

عسر على الكاملين السكنى مع المبتدئين، لأجل اختلاف سير الإخوة.
إذ يضطرب الضمير المتحفظ المطلوب إلى الواحد، عندما يسير في جميع
السبل وأعمال الفضيلة.
ويتضجرون ويتكدرون من وسط كثرة السبل الأخرى، لأجل الإخوة
المتحللين. لأن بواسطتهم يصنع الشيطان قتالاً مع النشطاء الذين
يكملون الفضيلة.
كما قال أوغريس: إن الشيوخ العالين في المجمع يثير عليهم الشياطين
الإخوة المتحللين.
قال بولس الرسول „ لا تطفئوا الروح“ فبماذا تنطفئ الروح إلا
بالاهتمام بالجسدانيات وإهمال الهذيذ في أمور الله، وبالساعات الدائمة
للكلام الفارغ ؟! إذ تترك مفاوضة سيرة الكاملين وكلامهم الصحيح
الذي يغذي ويحرض على تدبير السيرة، وتجلس مع أناس متحللين.

متلهين بأشياء باطلة فارغة تطفئ الحرارة وليس ذلك شئ ينفع النفس .

+ إحم نفسك من البطالة ، أو قف باطلاع في الجبل أنت وحدك ، ولا تتذكر أي شئ من هذا ، ولا تصور ذاتك القرب والدنو من المعارضين إياه . وعند ذلك تعرف كم تنفع البطالة مع الوحدة أكثر من الساعات الباطلة .

+ لا تتنازل مع المتراخين ، وإلا صيرت نفسك في الدرجة السفلى . بل لتكن مجالستك مع محبي الخير ، لتكون سكناك معهم في العلاء ، وكذلك أيضاً في المواضع التي فيها المعرفة العليا فعالك يكون متكاملاً بشجاعة . إلى بلد الضوء تعالى ، ولا تتنازل عند الخطاة . لأن حياة الحكماء مضاعفة ، لحال أن مجالستهم مع الفوقانيين بالروح . لأن الحكمة تصنع رجاء الروح للذي يقتنيها .

+ ابتعد عن محبي القنية وعن المشغوفين بالجشع ، فكلما تهرب من القنى .

+ إقص ذاتك عن المتنعمين كما من التنعم . واهرب من الفسقة كما من الفسوق . لأنه إن كان ذكر هذه الأمور يزعج الفكر ، فكم يكون النظر والتعرف مع أصحابها ؟!

+ لا تؤثر القرب من المشاجرين ومحبي الخصام ، لئلا تصير بحكم الاضطرار خارجاً عن الهدوء .

+ لا تكن صديقاً لمحب الضحك والمؤثر أن يهتك الناس ويشهر بهم ، لأنه يقودك إلى اعتياد الاستهتار .

+ لا تظهر بشاشة في وجهك للمنحل في سيرته ، وتحفظ من أن تبغضه . ولمن أراد النهوض ، فآزره واهتم به إلى الموت . وإن كنت ضعيفاً ، فامقت التطبيب ، لأنه يقول " أعطه رأس عصاك " وما يتلوه .

+ لا تتقدم قدام المتحرز البعيد الغور لتتوقع على الحسد ، إلا متحفظاً . لأنه يصنف كلامك في قلبه كما يحب ، ويأخذ من مناقبك الجميلة مادة يشتم بها آخرين . ويفسد أقوالك في فكره بحسب ميول مرضه .

+ عبس وجهك لدى من يبتدئ أن يقع في أخيك قدامك .

فإنك إذا ما فعلت هذا، تكون متحفظاً عند الله تعالى وحده.

+ صديق ليس بحكيم، كسراج في شمس.
+ صالة تفتت القلب، مجالسة الذين ليسوا هم حكماء.
+ صديق جاهل في ضيق ضرائه.
+ الأفضل أن تشاهد العاديات في منزل البكاء، من أن ترى حكيماً تابعاً لأحمق.
+ الأجود أن تسكن مع الوحوش، دون المتصرفين تصرفاً ردياً والذي هو حكيم في عيني نفسه.
+ جالس الضباع دون الشره الذي لا يكتفي.
+ كن خليلاً للقاتول، ولا لمحب الخصام والمشاجرة.
+ تحدث مع الخنازير، ولا مع نهم البطن. لأن مرغة الخنازير ذات الحمأة أفضل من أفواه الأكولين.
+ جالس المجذومين ولا المتعظمين.
+ قال شيخ "كل إنسان يحب الغلبة بكلامه، ويكون متكبراً في ذلك وصوابه؛ بالكمال لا تعاشره. لئلا يطرد منك النقاوة التي اقتنيتها بأتعاب كثيرة، ويملأ قلبك ظلاماً واضطراباً.

للتخلص من الاخوة المنحلين:

مضيت في بعض الأوقات إلى قلاية شيخ، وما كان يفتح بابه كثيراً. ولما رآني من الطاقة وعرفني، قال لي "أتريد الدخول؟". فقلت نعم أيها الأب المكرم". فلما دخلت وصلينا، جلسنا نتفاوض. فسألته "أي شيء أعمل يا أبي؟ لأن قوماً يأتوني، وما أنتفع منهم ولا أربح شيئاً بحديثهم وأستحي أن أقول لهم ألا يأتوا. نعم، ويعيقونني عن صلاتي في أوقات كثيرة، ولذلك أحزن".

فأجابني «متى جاءك قوم محبون للبطالة: فإذا ما جلسوا قليلاً، اجعل نفسك تقوم سريعاً أن تصلي. واعطهم مطانية وقل لهم: يا إخوتي، أريد أن أصلي، ولا يمكنني أن يعبر وقت صلاتي وإلا يثقل علي الأمر، لأني أرجع فأوفي ما فات في وقت آخر، ولذلك أقلق. ومن غير شدة شديدة ما يمكنني أن أعبر وقتي. وما توجد لهما الآن شدة تدعوني إلى ذلك».

«وادعُ الحاضرين ليصلوا معك. فإن قال لك أحد: صلِّ أنت، وأما أنا فأريد أن أمضي. اصنع له مطانية. وقل له بالمحبة: صلِّ معي ولو هذه المرة لننتفع من صلاتك معي». «وإذا قمت لتصلي، طوّل صلاتك عما جرت به العادة».

«فإذا استعملت هذا مع محبيك، يعرفون عنك أنك ما تحب البطالة، وما يعودون أن يجيئوا إلى الموضع الذي يسمعون أنك فيه. فانظر لاجتذاب وجه إنسان وتبرك على الله».

«... وإن كان الذي طرقك غريباً ممن يحبون الكلام البطال، فنيحه حسب طاقتك وسرح سبيله».

عدم الخلطة برهبان من غير طقسك:

حذر الشباب أن الذين هم لابسون اسكيمك، وليسوا هم مشاركيك في السيرة والتدبير والتصور والفكر بنوع الهذيذ، لا تستفاد معهم. لأنهم يعوقونك عن سيرتك وتبرد حرارتك، ويتخلف جريك. وهم ليسوا يلامون لأجل أنهم سائرون في طريق أخرى إلى الملكوت في شكل الرهبنة. وأما أنت، فلأجل تغير تدبيرك، يعيقونك عن سيرتك. ونترك أيضاً عن المفاوضة مع إخوتنا، ليس استخفافاً وازدراءً بهم، ولا لأنهم ليسوا أفضل منا، لأننا كل وقت نستعين بصلواتهم.

بل لأننا بالمداومة مع الناس نعدم التنعم مع سيدنا.

الإنسان الذي قد تعلم بالتجربة، وزاده حلاوة جلوسه سلوته العلانية، ليس لأنه يحتقر أخاه يفر من لقائه، ولكن لأجل ثمرة السلوة التي يود أن يقطفها كل يوم.

فإذا كانت مفاوضة القوم الذين هم من وجه أفاضل وذوو نبل وتحفظ - بسبب تعويد عمل العادة - من شأنها أن تؤذي النفس، فكم بالأكثر محادثة العوام والجدل والنظر إليهم ؟!

فإن كانت ملاقاة أهل زيه - أعني الرهبان - تؤذي من هو قائم بعد في الجهاد وله حرب مع خصمه، إذا لم يكونوا موافقين قصده ولا سائرين في طريقه، ففي أية حفرة يسقط وكيف يتخلص من شماتة الأعداء [إذا نظر العوام] ؟!

الذي ليس به غرض ضد ضميرك، تجنبه بسلام ومعرفة، ولا تعاشره. لأن الماء الذي في العلو بسهولة ينزل إلى أسفل، وأما الذي من أسفل فهو بعد جهد يصعد، لأنك عندما ترفعه إلى فوق ينحدر سريعاً إلى أسفل.

ولا تستحي إحضار أصدقاء إلى قلايتك جرياً على المألوف ولا بقصد الفضيلة أيضاً، بل المماثلين إياك والمساوين لك في الطرائق والأغراض والفهم.

ومع ذلك احترز من اختلاط المفاوضة النفسانية، التي من شأنها تتحول كرهاً بالخفاء من غير أن نشاركه.

ومن بعد المحادثة البرانية، اقرن بصلاتك الفضائل والصدقة، لتنظف نفسك شغل إشراك الحواس.

مع من تتحدث وتختلط؟ ومتى وكيف؟

يتقوى الضمير جداً بالساعات النافعة، وينشط الفكر في أعمال القديسين. فإن زارك أحد الآباء الكبار أو غريب متعب، فجلوسك معه يحسب صلاة لك.

إقترن بالأبرار، فإنك بتوسطهم تدنو من الله جلّ وعزّ.

أكثر الاختلاط بالمتواضعين، فتتعلم طرقهم. لأنه إن كان تصور ما قيل ينفع، فكم بالأكثر تعلمه منهم؟

إن محبة القريب لحسنة وممدوحة إذا لم يصرفنا الاهتمام بها عن محبة الله تعالى. وإن محادثة الإخوة الروحانيين لشيء عذب، إن نحن قدرنا أن نحفظ معها محادثة الله سبحانه!!

فإنه جميل الاهتمام بالاثنين ما داما يبعثان على الأدب، ولا يُشتغل بهما عن العمل الخفي والسيرة للتوبة والمفاوضة مع الله تعالى دائماً. لأن اضطراب الثانية [= مفاوضة الله] لهو من ثبات الأولى [= الصلة بالناس). والعقل لا يتخلص من مفاوضتهم.

أمرنا الآباء: أنه ليست توافقنا ملاقاة كثيرين، إلى أن نصطبغ بالصلاح بالكلية، وتحل علينا قوة السكون، حسب القول "أنت يا رب تسكنني في الهدوء وحدك، حتى يجوز الاضطراب والضجر، ويملك الإرادة والنية".

لنتعلم السكون مع الناس وملاقاة العالم، يصلح احتراس القلب.

المتوحد الذي في وسط كثيرين يعمل بالوحدة، هذا المجاهد نشيط. وهو يحتاج إلى المعرفة المقدسة الطيبة بتحقير الذات وطول الروح والاتضاع والانحطاط، ليحمل نفسه ويصبر على ما يأتي عليه. لأنه ليس في كل شيء يحمل احتياج حقوقه، بل بشيء قليل يكد، باحتياج التفحص.

مضاد الخلطة :

احذر من حياة الخلطة، لأنها معوقة لسائر أنواع التوبة. المحادثة مع كثيرين تصون الحزن الذي من أجل الله، ذلك المتحول فينا من الإفراز الطبيعي ومن النعمة.

الحركات الحارة التي تحركت فيك وقت مذاقتك حلاوة الله بالاشتغال الحار في الأشياء التي من أجله، ترجع بعد فتجدها قد بردت وعدمت مذاقتك داخل نفسك، بهذيذ مفاوضة إنسان دنيء له من مكانه، أو لأنك أكرمت العمل الجسداني أكثر منه.

لم تشتت تلك اليقظة والحرارة التي اقتنيتها وتضيع ربحك، بالمحادثات مع الناس وملابسة الأمور ذات الخارج ؟!

ما أردأ النظر والحديث لذوي السكون والمستنيرين في الهدوء يا أخوتي. فإن ضررهما ليؤثر فيهم أكثر مما في الذين هم بعيدين عن السكون.

وبالحقيقة يا أخوتي، كما أن شدة التجمد إذا ما باشرت أطراف النبات تيبسه، هكذا مفاوضة الناس - وإن قلت جداً وكانت على ما يُظن في أمر جليل - تيبس زهر الفضائل الذي أول ما قد أزهر من ضياء فضاء السكون، الذي قد أحاط - مع البساطة والنعومة - بشجرة النفس المغروسة على مجاري التوبة.

وكما أن شدة البرد إذا ما مرت بالنبات في ابتداء نشوئه، تحرقه وتعكف رأسه وتدخله في الأرض، هكذا المحادثة الناس تجفف أصل العقل الذي قد بدأ يورق بعشب الفضائل وتحني رأسه وتعكفه إلى مكانه وتقطع طراوته.

وكما أن الإنسان الحسيب النسيب إذا ما سكر، يُنسى خاص شرفه وتهون منزلته ويُستهزأ به، من قبل الأفكار الغريبة الداخلة عليه والوافدة إليه من قوة الخمر، هكذا عفة النفس

تتكدر من محادثة الناس ومشاهدتهم، وتنسى قصد تحفظك، أو
يمحى من فكرها غرضها إرادتك ويقلع من عروقك كل أساس السيرة الحسنة.

وإن كان تكدر قليل، أو نظر الناس فقط، يحدث حتماً هذه صفته
وهذا مقداره! ومفاوضة في حينية تصنع هذا الفساد كله في المتوحد
المتوحد: فماذا نقول في اللقاء المتصل المتواتر والإدمان على هذه الأمور المتوفرة؟!

إن أنت أحببت الخلطة، أبعدت عنك سيرك.

لأنه ما دامت خلطتك كثيرة، فأفكارك تائهة.

وحسبما يختلط الجسد، كذلك يختلط العقل.

المتوحد المرتبط بواحد أو بكثيرين، لا بد له أن يتحرك معهم ويحزن
ويفرح، مثل أغصان الشجر التي يحك بعضها بعضاً، ولا يأتي إلى قدام بالله.

والعادم من الصداقة بإزاز، هو أيضاً عادم من الضلال.

المتوحد الذي يزرع في قلبه زرع روحاني، ويؤتمن على كنز، ولا يجعل
ذاته أخرس وأطرش من جميع المفاوضات البشرية والأفعال العالمية
والاهتمام بالأشياء المرئية، فهو يضيع الوديعة التي عنده.

محب السكون والحفظ، جميع المفاوضات من جميع الوجوه، تخرب له.

وإن كان يميل إلى التشتت والحادثات، يظلم في الثاوريا، ويضل عقله،
ويمتحن بالتجديف. لأنه إذا ما دنا من هذا التدبير، فليست توافيه الراحة
مثلما يضر الحديث وتشتت الحواس وطموحها.

لأنه من الكلام المخل والدالة مع الأشخاص التي يصنعها، يقتني
داخل قلايته تلك العوائد وبها ينفعل.

الاتكال على البشر يمنع كلية الاتكال على الله المسيح، والعزاء الظاهر
يمنع العزاء الخفي، والاهتمام الاهتمام، والتذكرة التذكرة، والفرح يخيب
من الفرح.

وهذا حسب كيفية ما يكون الراهب منفرداً مستوحشاً، تخدمه العناية الإلهية
من الملائكة والقديسين.

رسالته إلى أخيه حسب الجسد :

[لما سأله أخوه برسالة أن يحضر إليه وينظر في ديره]
[لأنه كان متعطشاً إلى ذلك في إسكونه]

لسنا نحن أقوياء أيها الحبيب كما تظن. ألعلك ما كنت تعرف ضعفي وعجزي ؟! فهل يسهل عليك هلاكي ؟ وكيف تطلب حضوري إليك على الدوام ؟!

إلهِ حركة الطبيعة من فكرك، لأنها تحركت فيك كعادتها. ألعلك تظن أن الشيء الذي أنا مهتم به ما يستوجب الاهتمام!

لا تطلب ما يخص الجسد ورأيه. بل تمهل في خلاص نفسك يا أخي. لأنه عما قليل ننتقل من هذا العالم.

كم وجوه ألقى إذا ما أتيت إليك ؟ وكم أنواع من الناس ومواضع أصادف إلى حيث أرجع إلى مكاني ؟ وكم أسباب أفكار تقبل نفسي ملاقاتها وتضطرب من الآلام التي تتنبه فيها، تلك الأشياء التي استراحت منها قليلاً ؟

ليس يخفى عليك أن نظر العلمانيين فقط يؤذي المتوحدين، وليس النساء فقط بل والرجال أيضاً.

انظر كم من التغيرات يقبل فكر الذي هدأ زماناً كثيراً مع نفسه، إذا ما صادف هؤلاء بغتة ونظر وسمع شيئاً خارجاً عما تصوره ؟!

فإن كانت ملاقاة أهل زيه - أعني الرهبان - تؤذي من هو قائم بعد في الجهاد وله حرب مع خصمه، إذا لم يكونوا موافقين قصده ولا سائرين في طريقه، ففي أية حفرة يسقط وكيف يخلص من شماتة الأعداء ؟! وبالأكثر نحن الذين أخذنا معرفة وتجربة أشياء كثيرة من أجل هذا من غير ضرورة لا تلجئنا إلى فعل هذا.

يجب ألا يضل قلبنا بقول الذين يقولون إنهم ما يتأذون بشيء، من السماع والنظر، وإنهم بالسواء في القفر وفي العمر في القلاية وفي خارجها! ولا تتغير أفكارهم في السجس وفي الهدوء! ولا يحصل لهم تغير رديء، ولا يحسون من ملاقاة الوجوه والأمور بشيء، من ضغط الآلام!! الذين يقولون هذا ما يعرفون أين ومتى يُضربون ويجرحون! وأما نحن فما وصلنا بعد لصحة النفس هذه. ولنا جراحات صعبة منتنة، إذا ما خليت يوماً واحداً من الرباطات والمراهم أنتنت دوداً!!

البعد عن الخلطة، حتى بالفكر:

لأجل المداومة على تذكار الله ونسيان كل ذكر، قال يوحنا التبايسي:
ينبغي للذي يجلس في السكون، ألا يكون عنده ذكر إنسان أبداً في قلايته. ويتحيل ألا يدرس الضمير مع أحد داخله بالكلية، لا بذكر الأصدقاء ولا الأقارب. بل يمسك حبه بجوده بلا فرز واحد من الآخر، ويهدئ قلبه.

احذر من أن تكون جالساً وتفكر في أخيك. فإن هذا يقلع جميع بنيان برج الفضيلة، ولو أنك وصلت إلى حد الكمال.

ومع ذلك احذر من اختلاط المفاوضة النفسانية التي من شأنها أن تحرك زمانا بالخفاء من غير أن نشاركه.

البعد عن الخلطة: لجمع العقل:

...إن كنا مع كثيرين، أفكار كثيرين تحدث لنا.

وإن انفردنا عن الكل، صرنا منفردين أنقياء.

قال الأب مرقس: المتوحد الذي يترك قلايته وسكونه وتوحده، ويخرج بالحلول في كل وقت يريد، ليأكل ويشرب ويتحدث مع كثيرين: إن كان مع واحد، ثانياً ينبغي أن يُدعى. وإن كان مع اثنين، ثالثاً ينبغي أن يُدعى. وإن كان مع كثيرين، كثيراً ينبغي أن يُدعى.

فحسبما يختلط الجسد، كذلك يختلط العقل.

العقل المتوحد يتولد من تفرد الجسم. وحسب اختلاط الجسد كذلك يختلط الضمير.

إن كانت جميع مصادفات النظر والسمع تنتهي بتربية الأفكار داخلاً، فأية منفعة إذن للذين يسرعون باجتهاد إلى الملاقاة ويريدون أن يسكتوا الأفكار ؟!

لأن العقل ما يهدأ بدون الجسد.

عسر على الكاملين السكنى مع كثيرين، لأجل ~~اختلاف~~ (اختلاف) سير الأخوة. إذ يضطرب الضمير المتحفظ المصلوب إلى الواحد، عندما يسير في جميع السبل وأعمال الفضيلة.

الملاقاة والجدع والمحادثات تنقص احتراس الفكر.

لأن الأفكار الداخلية تتشتت بالملاقات المخرج، والنافعة أيضاً. وحيث توجد ملاقاة لخرج ونافعة، لا توجد سلامة...

أما السلام فإنه يملك على النفس بعد الزكاوة والتنقي من الآلام. ويتحفظ بواحد ربنا يسوع المسيح، بالفرار من الكل، من جميع الملاقات النافعة والمخرج.

ما دام الضمير والأفكار يضطربان كل يوم بأفكار شتى، بالملاقاة النافعة والمخرج، إذ يتسامح مع هذا الطبيعة قلبه، ومع الآخر لغرض إرادته، ومع هذا النياح شهوته، ومع ذاك النياح غضبه وفساد خلقه، فمتى يثبت الذهن فيما يخصه، ويهدأ وما ينقسم إلى أشياء كثيرة، ويصير واحداً عند الواحد، ويصعد أثماراً روحية لنياح إرادة الله ؟؟!

لا يستطيع الإنسان أن يكون بمفاوضة الله ومفاوضة الناس.

فإن لم يمت الراهب وينقطع من كل أحد، وينقبض بالسكون إلى ذاته كالميت في القبر، ما يستطيع أن يقتني هذه [الصلاة بلا طياشة] في نفسه.

إن كنت قد أعطيت نفسك للصلاة المطهرة للعقل، ولمداومة سهر الليالي، لتقتني فكراً نيراً، فابعد ذاتك عن نظر العالم، واقطع مفاوضة المحادثات. بدء تدبير سيرة الصليب هو الصبر بتقشف، والانقطاع عن كل محادثات الوجوه بالمحبة للصليب.

فقلل خلطتك بالكثيرين، حتى تقتني فكرة جيدة. واقطع حديثك مع المائقين، حتى تتعلم أن تتحدث مع الأحياء. واجمع نظرك من كل نظر، حتى تتفرس في جمال القلب وعظمته.

وإن صرت متوحداً في مسكنك، تصير وحيداً في فرحك. لأنك ما تقدر أن تتفرس في منظر جمال قلبك المفرح، إن لم تبعد عن الناس وتبعد نظرك وأفكارك عنهم. لأنك لن تجد أحلى من خلطتك بالرب، ولا ألذ وأنعم من حديثه، ولا كلمة خيراً من كلمته.

مبدأ السيرة المتقنة هو الميتوتة من كل مفاوضات الوجوه بشهوة الأمور الإلهية. لأنه من هذه تتولد داخل العقل حب وحرارة لتدبير السيرة الحقانية.

الذي يحب المفاوضة مع المسيح، فهو يحب أن يكون وحده. والذي يحب أن يدوم مع كثيرين، فهو يحب هذا العالم.

كما أن الثوب النقي، بعد جهد يثبت بياضه بين الصبغات؛ هكذا الذهن الطاهر أيضاً بعد جهد يحفظ بدون عيب وسط كثيرين.

لا يتضيق بأفكاره الداخلية من له عزاء بحواسه الخارجية. لأن الأفكار الداخلية تتشتت بالملاقاة النافعة والمضرة أيضاً، فلا تختنق النفس من الأفكار.

أما الذي له عزاء سري من داخله من لذيذ الفكر ويحس بثاورية عقلية في السماء أو الأرض، فليس هو في حاجة إلى عزاء من الحواس الخارجية. لأن الاثنين هما أنقص من الحب وغريبين عن الوحدة.

أية منفعة نقتنيها من السلام البراني، إلا أن تملأ قلبنا من تردد سلسلة الأفكار ؟!

البعد عن الخلطة للحصول على النقاوة :

لا تظن أن النسك من المأكل فقط هو العمل، أو القيام في الخدمة يبلغ الإنسان إلى النقاوة. بل الصبر على عدم مفاوضة الناس، والجثو الدائم قدام الصليب. بمشاركة أولئك مع هؤلاء حسب قوتك.

الفردية ليست تحفظ مع البشاشة، والاهتمام بالأفعال والخلطة بالأمور. حب الوحدة وهي تقدمنا إلى عدم الخطأ.

نقاوة القلب الحقيقية هي الحب الكامل التام بغير فرز لجميع طبع البشرية بالسواء ... ولا يمكن اقتناء هذا ونحن مشتبكون مع كثيرين.

فوائد أخرى للبعد عن الخلطة :

ويكون منقطعاً عن كل أحد، لكي يقتني سكوناً بسكون.

لأنه إن لم يقبض حواس الجسد، وبالأكثر نظره وسمعه ولسانه، ما يجد سكوناً لنفسه.

الذي يد الكل عليه، ويده على الكل، لا يتفرغ ليستريح بالسكون لأنه لا يمكن أن يكون مع واحد يكون مع كثيرين.

الذي يبتعد زماناً كثيراً عن مفاوضة الكلام ونظر الوجوه، تنقلع منه التذكارات القديمة.

المتنسك الذي يتغصب ويصبر مدة بالسكون والوحدة بالاختفاء عن الوجوه، تبطل منه العوائد والتدابير الأولى والتخيل، التي هي

رباطات النفس، التي بها يموت ويحيا الإنسان.

التوبة هي أم الحياة. تفتح لنا بابها بالفرار من الكل.

القريب من الكل، هو بعيد عن التوبة، والمبتعد عن الكل بإفراز هو تائب نحوه.

لأنه طالما يبتعد الإنسان عن البشر، ويجمعه إلى ذاته، فمن وقته ترتسم في عقله صلوات التوبة ويقبل زرع الحياة من النعمة. وكل حين يتحرك فيه حزن الإفراز، ويختلج بقلبه ذكر حياة العالم الجديد وانتظار القيامة ويوم الدينونة.

إن كنت تحب العفة، فلا تكن محباً للطياشة. لأن الملاقاة التي تعرضها لك بواسطة الطياشة، ما تتركك أن تمسك العفة باحتراس في نفسك.

لأن كل من يحب الطياشة ما يكون عفيفاً.

عدم الاحتراس والقرب من الناس والأمور، ولّدا للشيوخ الأعضاء البالية أفكار الشباب، وألقاهم في قتال الصبوة.

الطياشة وعدم الانقباض تصير للإنسان سقوطاً على الدوام.

وإن لم يخله من الشر العديم وجود سبب السقطة، فإنه يقتني عقلاً مضطرباً في كل وقت، ويبعد عنه قلباً هادئاً ساكناً.

لأن الإنسان إذا ما انقبض عن مفاوضة الناس، رجع إلى ذاته وإلى تقويم تدبير سيرته حسناً قدام الله.

إنسان خاشع ما يهتم بأن يحفظ الجسد ونفسه بغير دنس.

إن كنت تحب معرفة الحق، فأنا أرشدك معرفة الطريق تقوم غرضك من [illegible] إلى الواحد. وإذا أنت مواظب وسالك لكن هي، انقطع من كل أحد.

ليس يؤهل المتوحد لهو [illegible]، ما دام [illegible] إتباع أمور يحبها

ليشبع بل جوعه، إلى أن يشبع من الكل، ويتقبضه ذاته من الكل ويصير واحداً.

لا يقتني المتوحد حرية النفس، وانشراح القلب، من دون الانفراد عن خلطة الناس.

كما أن الوجوه مختلفة، كذلك الإرادة والخير والغرض والعوائد والخصال. فإن كان إنسان يريد أن يجاور قريبه بسلامة، فذلك يجب أن يكون برباط الحب. وهذا هو الطريق الوحيد لسلامة القلب.

لهذا صار السكون من أعظم الفضائل، لأنه ينجينا من سائر الرذائل والشرور. فلنهرب إلى السكون يا إخوتي، حتى نهرب من نجس النية ونتوصل للتجديد الخير.

٢- الصمت :

تطويبه وحث عليه :

إذا أردت أن تعرف رجل الله ، فاستدل عليه من دوام سكوته ، ومن بكائه ، ومن انقباضه نفسه إلى ذاته .

وإن أردت أن تعرف الرجل السائب القلب ، فاستدل عليه من كثرة كلامه ، ومن تخبط حواسه ، ومن مقاومته لكل شيء : يقول ويريد أن يغلب .

كل من هو كثير الكلام - ولو أنه يخبر بأمور عجيبة - اعلم أنه فارغ من الداخل .

المهتم بالمحادثات ، افهم أنه أمي من الله .

الصمت الدائم لهو زينة وبرهان المتوحد . لأنه نقص في حقه المتوحد أن يكون مفتقراً إلى الاحتراس وكيف ينبغي له أن يكون في السكون والاتصال على الدوام .

[من فضائل الراهب] ... وملازمة السكوت .. ، والإيجاز في الكلام .

أكثر من كل شيء حب السكوت ، وهو يقدمك إلى الثمرة التي يضعف اللسان عن تفسيرها .

تحفظ من المحادثات ، فإنها لا تنفع في كل وقت .

استعمل الصمت في المجامع ، لأنه يمنع من خسارة كبيرة .

« إن لم يكن لك قلب نقي فلا أقل من أن يكون لك فم طاهر »
كما قال السيد يوحنا ذهبي الفم .

إن كنت ما تهدأ بقلبك فلا أقل من أن تسكت لسانك .

وإن كنت ما تقدر أن تسد فم المتكلم على رفيقه فلا أقل من أن

تحفظ فمك من مساهمته في هذا الأمر...

قوت الجسد المآكل، وغذاء النفس الكلام والحكايات.

وكما أن شره كثرة المآكل هو رغبة الجسد. هكذا هو السكوت هو ثمرة الحكمة المزمعة.

الذي يصوم فمه عن الغذاء، ولا يصوم قلبه عن الغضب والحقد ولسانه عن الأباطيل، فصومه باطل.

لأن صوم اللسان خير من صوم الفم. وصوم الأفكار مع القلب خير من صوم الاثنين.

الذي قمع واستعبد بطنه ولسانه، خير من الذي استعبد الأسد.

والذي قمع الكلمة في قلبه، خير من الذي طمر وزنة في الأرض.

إن كنت محباً للحق، فكن محباً للصمت. مثل الشمس يجعلك الصمت تنير بالله، ويخلصك من تخايل عدم المعرفة. والسكون يخلطك بالله.

حب سكوت الإفراز، لأنه ينبوع المعرفة. لأن العقل بالسكوت ينقى، والرأي بالصمت يستنقى.

انقبض من المحادثة مع كثيرين، واحمل هم تدبير سيرتك. كي تخلص نفسك من تشتت هدوئك الداخلي.

سكوت الفعل لتقويم آخرين، أقوى من كلام الوعظ الذي يتكلم من انحلال سيرته.

لأن الثيئولوغوس يقول: حسن هو الكلام عن الله تعالى لأجله. وأجل من هذا أن يطهر الإنسان ذاته لله سبحانه.

جمل الفلسفة بصفة سيرتك، وليس بالكلام.

المتوحد الذي يشتهي أن يعلم ويقوم كثيرين، هو مريض بمحبة المديح بوجه الفضيلة دون أن يحس.

لأن حكمة الكلام ليست في كل وقت تنجح. ولا مع كل أحد.

وأما سيرة تدبير الفضيلة والنسك، ففي كل جهة وفي كل مكان وحتى عند الزواني يمكن حصولها.

الكلام المتقن والمعقول على السيرة وعلى الحكمة ومعرفة الحق، حتى عند الأنفس العامية يوجد. وأما تدبير سيرة الحق، فليس هو كلاماً مصقولاً مزيناً، بل هو طهارة ونقاوة نفس.

لأنه كُتب أن قلة الخبرة بالكلام لا تخسر من طريق الكمال.

الأفضل لك أن تكون قليل الكلام، مع أنك عالم وحكيم وذو معرفة بتجربة الأشياء في داخلك، من أن تفيض أنهار تعاليم مع جمود عقل من إكتساب السماع والحفظ.

الأفضل لك أن يُظن بك أنك جاهل - لقصور معرفتك عن الجواب - ولا يُعتقد فيك أنك من الحكماء لأجل التوقح.

الفرق ما بين حكمة الروح وحكمة العالم على هذه الصفة، أنك تحس في نفسك: أما في حكمة الروح فإن الصمت يستولي عليك، وأما في حكمة العالم فإنك تفيض ينابيع طياشة التبجح كالشيء الذي شرب الماء المنصبات. هكذا الصمت الدائم لتربية النفس. أما المعرفة وكلام الحكمة، فمثل التعري للعضو الذي يُستحى منه.

وأقوال المنفعة إذا كانت على غير نظام، تصنع ظلمة.

وإن النفس تتبهدل بكثرة المحادثات. ولو كان غرضك نحو مخافة الله تعالى.

الإنسان الذي يجعل لنفسه حداً، ألا يدخل فاه أو يخرج منه شيء بدون نطقية العقل، هذا قد قمع وحشية جميع حصون الآلام المرذولة.

الذي يفشي السر هو ابن الجهل. سر قلبه ما حفظه، فكيف يحفظ وديعة الروح ؟!

أمثلة للصمت :

في تلك الطريق التي نزل بك إلى بلدك، تعال أنت بك إلى علوه، لأنه سكت في الأحشاء. وبعد ذلك خرج وخاطبك. فاختر أنت السكوت مثله حتى تختص بمناجاته. ولأنه الرب سكت في الأحشاء، وبعد ذلك في خروجه خاطب بني البشر، اسكت أنت من اضطراب جسدك، وبعد ذلك تكون مخاطبتك مع الروحانيين. فليكن سكوتك مثل الطفل في أحشاء والدته. ومنه تولد الكلمة، ومن السكوت تأتي إلى الكلام مع خالقك.

من السكوت خرج وتنازل وأتى إلى عندك، فاسكت أنت من المناجاة، وبعد ذلك تقدر أن تهدئ أفكارك، لأنه ما دامت خلطتك كثيرة، فأفكارك ثائرة.

أنبا أرساني من أجل الله ما كان يفتح فاه، لا بكلام منفعة ولا غيره. وآخر من أجل الله كان يتكلم النهار جميعه ويقبل الغرباء الذين يأتون إليه. وأما ذاك فعوضاً عن هذه اقتنى له الصمت والسكون. ولأجل هذا مع روح الله كان يسير داخل بحر هذا العالم بسلام مرتفع في سفينة تدبير السكون، حسبما ظهر لواحد من قديس الله لما فتشه وبحث هذا الأمر.

لا تظن أيها الأخ أن تلك التي قيلت عن أرسانيوس العجيب هي باطلة. لأنه كان من الشباب الذين يجيئون إليه: بالسكوت يجلس معهم، وبالسكون كان يودعهم. وبهواه فقط كان يعمل هذا، وإنه كان في البدء لم يقتن هذا إلا بتكلف.

وربما كان يتكلف (يتكلف) ويفتح بابه للأناس منهم، فبهذا فقط كانوا يتعزون. وأما الحديث والمفاوضة فكانوا يرفضونه.

وآباء كثيرون انتفعوا بمنطقي، وصاروا يحفظون هم أنفسهم، لأجل تربية فمهم الروحاني من التعليم الذي قبلوه من منطق الموهابي.

كيفية حفظ الصمت:

وكان إذا أراد أحدهم الخروج إلى الناس، حجراً كان يضع في فمه، أو حبلاً كان يشد على حقويه. وربما كان بالجوع يعذب نفسه، لأن الجوع يعين كثيراً على ضبط الحواس.

قبل كل شيء نطلب نحن أنفسنا لنسكت. وحينئذ من السكوت يولد لنا شيء يقودنا إليه. يعطيك الله أن تحس أي شيء يولد من السكوت. إن كنت بهذا التدبير تبدأ، فما أكيف كم ضوء يضيء لك من هنا.

إن حفظت عينيك وأذنيك لئلا يدخل ما يكدر إلى نقاوة قلبك، لا تخطئ بلسانك.

مضار الكلام:

حب السكون والحفظ، جميع الفاوضات من جميع الوجوه تحرم لك.

تصور أن البطالة مبدأ ظلمة النفس. وظلمة على ظلمة هي محادثات الأقوال. والثانية علة الأولى.

إن كان لسانك يغلبك، فصدقني فيما أقول لك: إنك لا تقدر البتة على الانتشال من الظلام...

إن السحاب يغطي الشمس، والأقوال الكثيرة تبلبل النفس التي أشرقت على الاستنارة بالصلاة.

لم تشتت تلك اليقظة والحرارة التي اقتنيتها وتضيع ربحك، بالمحادثات مع الناس، وملابسة الأمور ذات الخباط؟!

نار في حطب رطب ما تشتعل. وحرارة الهية في قلب يود النياح والحديث ما تشتعل.

المحادثة مع كثيرين تطرد الحزن الذي من أجل الله، ذلك المتولد فينا من الإفراز الطبيعي ومن النعمة.

إن العذراء لتتأذى بالمجامع والمحافل. وفكر الراهب ينقص من المحادثات مع كثيرين ومن منظرهم.

كما أن اضطراب الأفكار يتولد من نهم البطن. كذلك الجهل وحيرة العقل يتولدان من كثرة الكلام والمحادثات التي ليست على نظام.

اللسان الكنعاني يسرق كنوز القلب، ويفضح النفس ويفقرها.

كل شيء تتكلم به بغتة، أو تفعله بغتة، يحدث ضياعاً. لأنك تكون قد أكلت شهوة نفسك به.

الذي يحب السكون، ينبغي له أن يهرب من كل محادثة. لأنه ليس شيء يطرد نشاط الضمير، ويكثر البرودة في الفكر إلى الله، مثل المحادثة الباطلة ودوام الكلام الفارغ والسيرة الرخوة. هؤلاء بالكمال يبطلون من النفس الشهوة إلى الله ومحبة سيرة الوحدة المقدسة. احتفظ من هؤلاء بكل قوتك.

كل أفكار تجذبك إلى المفاوضة، اعلم أنها تدعوك إلى النجاسة، مثل الطير إلى اللقط الذي في الفخ. وهذا هو أساس الزلل.

كان أحد الآباء يأكل دفعتين في الأسبوع. وقال لنا:

«إن اليوم الذي أتكلم فيه مع إنسان، ما أقدر أن أسلك فيه قانوني في الصوم، بل أغصب أن آكل قبل كماله».

ثمار الصمت وفوائده:

فعرفنا نحن الجميع أن حفظ اللسان، ليس فقط يوقف العقل مع الله، بل ويمنع الأعمال الظاهرة - التي بالجسد تكون - قوة عظيمة خفية، وينشط على تكميلها، ويستضيئ العقل بالدوام ..

حسب قول الشيوخ: إن صمت الفم هو حافظ النية إلى الله، إن كان سكوته بمعرفة

التوبة كثيرون يبدؤون ويتظاهرون بها. وليس أحد يتقبل على التقدم، إلا المحزونون بقلبه. وكثيرون يرجعون إلى الخلف، وليس يكمل إلا الذي اقتنى الصمت على الدوام.

إن السكوت الدائم مع قراءة الكتب وغذاء بقياس والسهر، تحرك بسهولة في العقل التعجب في الأمور، إلى أن تحرك أسباب تجعل دوام السكوت.

أما الأمور التي تتحرك من الأعمال بالسكوت من ذاتها بغتةً بغير عناية واختيار، فإنها تجعل العينين مثل بركة الماء بالدموع الفائضة التي تشل الحزين بلا ترك.

لذة شيء ما يوجد في القلب من تدبير هذا العمل بعد زمان. وبتكليف يجذب الجسد ليدوم في السكوت. ودموع كثيرة تتولد لنا من هذا التدبير، ومنظر شيء عجيب يحس به القلب بتمييز، وفي وقت بحزن، وفي وقت بتعجب.

يصغر القلب ويكون كالطفل. وإذا ما بدأ بالصلاة، يسكب الدموع. عظيم هو الإنسان الذي يضبط أعضاءه. وعوائد عجيبة يقتني داخل نفسه.

من دون السكوت ما يتواضع القلب. ومن دون تواضع القلب

ما تتوقد في القلب الحركات المتواترة. ومن دونه لمولاك، جميع أعمال المتوحد هي تراب ورماد.

إذا ما دخلت إلى فرح الروح: فإن أنت صمت لسانك أيها الأخ، فإن الله يجود عليك بنعمة الخشوع ما تفضل القلب. حتى أنك تعاين نفسك متوقداً منها. وبهذين تدخل إلى حبور الروح.

السكوت يكسب الحكمة، ويجمع الحواس للمعرفة.

وإن أنت صرت سالكاً مع نفسك، فإنك تحس بالسكوت الإلهي.

وإن أنت سكت وانقطعت عن حديث الكثيرين، تنظر بعد زمن إلى تسبيح خالقك.

المتوحد الذي من بعد أكمل أعمال نشيطة، أهل لمطالعة المعرفة، وتخلف عقله عن تركيب الكلام، واستوطن فيه صمت السر الجديد، هذا قد استحق بالحقيقة أن يتكلم مع الملائكة خفياً.

٣- حفظ الحواس

السكون هو نقص حواسنا من العالم.

والسكون هو انقباضها، وحل الحواس من العالم.

والسكون يصلح جداً لعمل الله. تشبه هذه قصة التلميذ ومن حواسهم من العالم، ومن ثم اهتموا باستحضار القلب بعمل [illegible] الفكر

لزوم حفظ الحواس وأهميته:

قال القديس مرقس: ينبغي أن نتحرز من النظر والسمع وباقي الحواس.

قال يوحنا التبايسي: المتوحد المبتدئ إن لم يعود نفسه أن يسكت حواس جسده، بل يتكلم بلسانه مع الإخوة أو خدامه، ويتفرس بعينيه ويسمع بأذنيه كلامهم؛ فما هي فائدته من الحبس ؟!

ليس الهذيذ [الرديء] فقط يورث التمسك به، بل والنظر والذكر يكملون هذا.

آباء كثيرون يا إخوتي، أدركت أنهم بلغوا الكمال كله، وذلك بضبط حواسهم. لأنه من ضبط الحواس، يولد ضبط الفكر.

متوحد هادئ متواضع معترف بعجزه - مع التخلف عن تكميل قوانين السهر - أفضل من مكمل بكاء وكلفة وطلق اللسان وتسيب الحواس.

لن يصلح الشيخ بجسده يتعب وحواسه يحل ويطلق: أعني السمع وانفتاح الفم وقلة انضباط اللسان وطموح العينين!

من أعظم نعم الشيوخ: [illegible] من لم يتجرد من فعل الحواس أعني النظر والسمع والكلام، فقد صار لنفسه عدواً وضيقاً متضاعفاً.

لأن تخايل الصور التي تكون بالفكر تضغط الإنسان وتؤذيه بدون الأمور. وإن كان تخايل الحادث حدوثاً عقلياً يسبب للإنسان وجعاً خلواً منه، فماذا نقول في نفس الأمر الموجود القريب
[من فضائل الراهب] ... وحسن تصرف الحواس، وحفظ النظر... ويبعد نفسه من السماعات العالمية والبحث عن... وأزيد من كل شيء أن يحفظ حواسه من مصادمة الملاقاة من الأصاغر إلى الأكابر.

الراهب هو من خرج من سلطان بطنه، وسلم من لحظات عينيه وخطرات فكره وزلات لسانه.

رأس الرهبنة طهارة الجسد والحواس من الخطية، وعمارة القلب بالتواضع والرحمة، وذكر الموت في الليل والنهار.

إن كنت ما تقدر أن ترتب أفكارك وتؤلف لمواجهة على ما ينبغي، فلا أقل من أن ترتب حواسك ترتيباً سديداً.

المتوحد الذي جرب بذاته أنه يلم أنواعاً متواترة وأعمال مديدة بالصلوات، قد انفلح القلب والعقل، حتى تقويا وغلبا الحواس، وقطعا عن الإنسان الحافظ العقل دائماً، فليتميز ويزيد ربح الناحيتين الأولى والأخرى. لئلا تكون له غلبته انقلاباً وربحه خسارة.

علاقة حفظ الحواس بجمع العقل:

يتشتت العقل بخدمة الحواس عن الذهن بالله. لأن الحركات الداخلية مربوطة بحركة مع الحواس جداً.

الاتضاع ومفاوضة الفرصة، حتى ولو كان الإنسان ساكناً وأبكم، أو أنه جاهد قريباً بالتأمل والسمع، لا كفاءة - بالشيء الذي تدخله إلى أبواب عينيه وسمعيه - أن تعكر الفكر وتبدد حرارته من الإلهيات.

- لأن العقل ما يهدأ من دون الجسد.

فإن كانت جميع مصادمات النظر والسمع تنتهي بتربية الأفكار
داخلاً، فأية منفعة إذن للذين يسرعون باجتيازهم إلى الفلاة
ويريدون أن يسكتوا الأفكار ؟!

وإن كانت الشهوة ثانية الحواس - تلك التي تتولد منها الشهوة
كما يقال - فليصمت إذن الذين مع مباشرتهم الحواس ومشاكلهم يدعون
أنهم يحفظون العقل.

ترتيب الحواس وحفظ القلب، يتقدمان سيرة العقل.

- لأن من ضبط الحواس يتولد ضبط الأفكار.

وعلاوةً لشيء يتفق أن يلقى الإنسان من غير إرادته، وتصير
يخرج عن حد حريته. وإن لم يكن متحفظاً بحواسه من العادة الدائمة
التي سبق واتخذها في نفسه، تصير (العلل) إلى زمان طويل
لا يرجع إلى عقله، ولا يجد الهدوء الأول.

- لنضبط حواسنا من الطموح في الأفعال التي تضيّق الفكر وتشتته
لكي نتمكن من حبس فكرنا داخل قلبنا بذكر ربنا ونظر مجده.

مصادمة الحواس لا تمنع من الأعمال الجسدانية. أما المريد
ه يقتني السكون من سلامة الفكر بالعمل الخفي، فإن الأصوات خلواً
من الناس تزعج هدوء قلبه.

- السكينة الداخلية لا تتقدم خلواً من بطالة عمل الحواس.

- تدبير السيرة الجسدانية يريد انتباه الحواس. وأما تدبير
السيرة النفسانية فيحتاج إلى تيقظ الفكر وانتباهه.

... قف مقدار لحظة صامتاً، إلى أن تترك حواسك وتهدأ
أفكارك. وبعد ذلك ارفع نظرك الجواني إلى الرب، واطلب منه بحزن
ن يقوي ضعفك بمشيئته.

هكذا الضمير ينفع إذا ما ترتبت الحواس وهدأت، وبالسلامة والنور ارتفعت الأفكار والعقل والضمير.

متى انجذب العقل مع الحواس، أكل معها غذاء الوحوش.

أما متى انجذبت الحواس مع العقل، فإنها تتناول معه طعام الملائكة.

جمع العقل والحواس في الصلاة: بدون الاحتراس من كثرة الكلام والأعمال وحفظ الحواس وصونها من النميمة، مع إنارات لائقة بالسكون، لا يستطاع أن يكونا.

فإن كنت تريد أن تتخلص من طياشة الأفكار، وتجد فسحة للصلاة بعقلك: اجمع ذاتك من الهيولى، والاهتمام بالأشياء، وطموح وطياشة الحواس. لأنه كلما ينقص هؤلاء، كلما يوجد للصلاة الطاهرة موضع وفسحة من الطياشة. وهذا جزئي وليس على الدوام.

علاقة حفظ الحواس بالقلب:

الذي قد ماتت أعضاؤه الخارجية، فقد عاشت أعضاؤه الداخلية.

الحواس الخارجية هي كالكاتب الذي يجلس ويكتب كتاب القلب. أما النسخة التي ينقل منها القلب، فهي الأمور العالمية الجيدة والردية مع الأرضية سواء النافعة منها أو المضرة. وهذه إما تسبب الحياة أو الموت.

الحواس الخارجية هي الفلاح الذي يفلح أرض القلب. أما البذار فهي ما يلتقطه من أفواه وأفكار الناس سواء أكانت زوانًا أو حنطة. والذي يزرعه الإنسان هو هو الذي يحصده.

الحواس هي أنهر القلب التي تسقيه. وحسب نوعية الماء الوارد من الحواس يُسقى القلب إن كدرًا أو رائقًا، مرًا أو حلوًا. ولا يمكن الانعتاق من العالم وأموره إلا بالموت.

الحياة بالله تعالى هي سقفة الحواس وحوله. فإن القلب إذا ما عاشه، انهدم منار الحواس. وتشوش الحواس موت للقلب. وذلك أنها إذا ما نهضت دلت على ميتوتة القلب عن الله عز وجل.

كل من هو منحل الحواس، فهو أيضًا بقلبه منحل ومسترخٍ. لأن انحلال تصرفه البراني دليل على انحلال القلب الجواني. المنحل بحواسه هو أيضًا منحل بقلبه. والمنحل بقلبه هو أيضًا منحل بحواسه.

لأن التدبير البراني هو صون الجواني، والتدبير الجواني هو صيانة للبراني، لا يثبت الجواني [باب القلب] بحفظ صافٍ، إن لم تحرس تلك بالذي هو خارجه [باب الحواس]... ولا هذا الخارج تكون في العقل قوة على حفظه، إن لم يحرس بحفظ الجواني، لأنه به يكمل حفظه، وهو الحافظ له في الحقيقة. ولهذا إن لم يحفظ الحارس الباب الجواني، فاللذان هما خارجه ~~[بابا القلب والحواس~~ [بابا القلاية والحواس] يثيران عليه كل وقت اضطرابًا وسجسًا.

إن أردت أن تعرف الرجل السائب القلب، استدل عليه من كثرة كلامه ومن تخبط حواسه...

ما دامت الحواس تباشر الأشياء، لا يقدر القلب أن يهدأ من تخايل تذكارها.

هدئ حواسك الخارجية حتى يمكنك أن تُسكت الداخلية.

المحزون قلبًا وهو منحل سائب بحواسه، هو كمريض يؤذي جسمه، وفمه يولع بكل غذاء يضره. والمحزون بالقلب وهو طالح وسائب بالحواس، هو كإنسان له ولد وحيد، ويذبحه بيديه قليلًا قليلًا.

لا تطلب سلامة القلب، ما دامت الحواس تطيعك، والنية تنخس...

حفظ الحواس يقطع الخطايا. حفظ القلب يقطع الآلام.

علاقة حفظ الحواس بالنقاوة :

حفظ الحواس يقطع الخطايا. وحفظ القلب يقطع الآلام التي هي آباء ووالدة الخطايا.

لأن الإنسان يجلب لنفسه لذات الحرب بمحاذاته للأشياء الموضوعة تجاه حواس الجسد.

وكما أن رائحة السم المميت تفسد مزاج الجسد، كذلك النظر السمج يخبط سلامة الضمير.

بمقدار ما تكون حواسك حية عند مباشرة العوارض، على ذلك الحد احسب نفسك مائتاً من الله. لأن لهيب الخطية ما تخلف عنك في كل التغيرات بكل أعضائك، ولأنك لست بقادر على الاستسلام لنفسك.

الظانون بالحرب البرانية إنما يتشجعون بالخوف الذي من داخل، وليست لهم ضرورة تحيطهم باغتصاب إذا ما اضطربوا بالقتال الذي من وراء. وأشير بالحرب إلى القتال الواثب على النفس من جهة الحواس والتواني الذي يثيره الإنسان على نفسه باختياره بجملته: أعني بالأخذ والعطاء، والسماع والنظر وشره البطن، وأن يكثر لنفسه أفعاله المتواترة التي تجلب على النفس العمى.

وذلك لأن النفس من الاضطراب الذي يلاقيها من الخارج، ما تقدر على أن تتأمل ذاتك في الحرب المتحركة عليك خفية؟

وأما في السكوت والهدوء فتقدر على القتال بما يتحرك من الداخل إذا ما أغلق الإنسان باب المدينة - أعني الحواس - عند ذلك يكون القتال وجهاً قبالة وجه، ومن الكمين الذي وراء المدينة لا يخاف مضبوطاً هو الإنسان الذي يعرف هذا، ويلازم السكوت والهدوء.

الحواس المتعففة تولد السلامة للنفس ولا تتركها تأخذ تجربة الأمور. وقلة أخذها الإحساس بالأشياء والأمور هي الغاية بلا جدال.

أما إن تركتها في الثبات بحالها، حتى يدخل الإحساس، وبعد ذلك تجارب لتكون خارجاً منه، فإنك تجرد الأولى التي هي الحسنات والوداعة التي من الطبع.

أكثر الناس في العالم عميان، بهذا المعنى محجوبون من بلدهم الذي هو البلد الطبيعي والنقاوة [illegible] ليأخذوا معرفة شيء شيء.

احتراس الجسد وإفراز الأفكار، يقتنيان للفكر عفة نقية.

حفظ الحواس، وترتيب الأعضاء حسناً، يولدان حياء واستحياء الأفكار وضميراً نقياً من غير جدال.

الحواس التي تداوم الطياشة في أشياء كثيرة ومن كثرتها ما تقدر أن تقتني عقلاً متعففاً.

أغلق هؤلاء أبواب حواسه، لئلا يدخل إليه شوق هذه الدنيا، فيسرقه لكنوز المؤذاة.

إن كان الشيء الذي نقبله بالحواس، ليس داخلنا ابن جنسه لكي يميله، فللحال يمضي كالخاطر. فلهذا ممدوحة جداً جودة النفس أكثر من جميع الفضائل.

فوائد أخرى لحفظ الحواس:

لأنه إن لم يقتصد الراهب حواس جسده، وبالأكثر النظر والسمع واللسان، ما يجد سكوناً لنفسه. لأن الذهن ما يسلم من دون الجسد.

الآباء القدماء شبهوا نفس المتوحد بالعين [عين الماء]: لأنها كلما كانت هادئة من كل طغيان السمع والنظر، فيصير ينظر المتوحد الله وذاته، ويجد من ههنا مياهاً عذبة التي هي أفكار النقاوة.

وإذا ما قَرُبَ من الساعات والنظر - بسبب الاضطراب الذي تقبله النفس - يشبه إنساناً يسير في الليل: إذا ما انتشر الضباب على الجو، لا ينظر قدامه أي سبيل، فبسهوله يتوه ويضل في بلاد قفر مؤذية.

فإذا ما هدأ مع نفسه، يكون كمن تهب له ريح حسنة، والجو بهيج فوق رأسه، ويبتدئ يسير قدامه، وينظر ذاته، ويميز كيف هو وإلى أين ينبغي له أن يذهب، وينظر منزل الحياة من بعد.

وإذا ما كانت الحواس تنجو بالسكون الدائم، والتذكارات تبلى وتقوى بالمعونة التي من الهدوء؛ عند ذلك طبيعة أفكار النفس تنظر... وأية كنوز مذخورة فيك!

لأجل هذا نقبض حواسنا من الملاقاة والصدف، لكي تهدأ الحركات الداخلية، وتنظر أثمار الله.

اجمع نظرك من كل منظر، حتى تتفرس في خالقك وعظمته.

لأن كل الفرحات لا تساوي ذلك الوجه المملوء من كل فرح.

لأنه كل حسن في الدنيا ما يساوي حسنه. ولا يستطيع أحد من البشر أن ينظره. لأن الله هو محبوب عند الذي أحس به. ومحبته عندما تثبت

كلما أغلقنا على الحواس، وحفظناها من الملاقاة ومن دخول تيارات غريبة إلى القلب؛ فإننا نستنير في الصلاة.

- إن حفظت عينيك وأذنيك لئلا يدخل ما يكدر إلى نقاوة نفسك، فإنك لا تخطئ بلسانك.

كيف تحفظ الحواس:

إغصب نفسك أن تثبت في قلايتك في السكون. وتكون أنه

طالما أنت فيك، حواسك مصانة، وأفكارك وحزن قلبك محفوظان. وتكون شيئاً آخر غير ما أنت عليه في كل أمورك.

لسنا نقدر أن نغلق الباب الأوسط [باب الحواس]، إن لم نغلق الباب البراني [باب القلاية].

وإن دمنا على هذا بالضبط [في الحبس وضبط العقل] بالرجاء يوماً بعد يوم، وإليه نصرف كل غرض تدبير سيرتنا؛ لسنا نتعب كثيراً في التجارب. لأنه به تخضع الحواس، وتنقطع جميع الآلات المتعبة التي تضطر عقلنا أن يكون تحت الخضوع لها، وتجذبه وتحوله من القيام في بلده بهدوء وتشغله بتحريك الآلام الباطلة وأنواع الشهوات.

وأما الحواس فما نقدر أن نفصلها من الخروج بالكمال، إن لم يكن للقلب عمل خفي، الذي هو بلد السكون وبيت راحة والهدوء الحق بتحقيق.

ولهذا استطاع كل واحد منهم [في البراري والقفار] أن يكمل جهاده في السكون. حيث لم تجد الحواس فرصة لتكون خصوصاً (خصوصاً في الجهاد) بمصادمة الأشياء المؤذية.

لأن السكوت يكسب الحكمة، ويجمع الحواس للمعرفة.

لا تلتمس نوراً في نفسك خلواً من زوال الاهتمام، ولا سكوناً وهدوءاً مع تسيب الحواس، ولا قبضاً للحواس مع تواتر الأشغال.

الذي يتضيق في قلبه من أجل الخوف ومحبة العفة، ويفرح بالصبر على الصوم ويأكل بقانون؛ ما ينخدع لانحلال الحواس.

الجوع يعينه كثيراً على ضبط الحواس.

الحزن الجواني لجام الحواس.

والتدبير الجواني هو صيانة للبراني.

[في منزلة الفرح بالرجاء] ... وما أن يبدأ بالصلاة، حتى تنقبض الحواس من غير الإرادة، وتبدأ الأفكار تجتمع لأجل أنها أحست

يكون ما جرى مقال عنه المجاهدات والحروب :

إلى أن تقتني النفس شكر الإيمان بالله باتصال بقوته ، لا ضعف الحواس تشفى ، ولا بشجاعة تستطيع أن تطأ شهوات الأشياء المزينة التي لها حاجز لذلك الشيء الذي هو داخل ولا يُعلم ، أعني النفس .

بترتيب الأعضاء داخل القلاية :

... ترتيب الأعضاء التي تعطي دالة للنظر والجسد غير المتعففة .

لأنه بتوسط الجلوس العفيف ، وحسن ترتيب الأعضاء ، ينبغي أن يتحفظ بذاته في تصرفه في الوحدة داخل قلايته بحياء وترتيب .

ولو أنك شيخ ، لا تتشوه وتتكاسل من بحفظ الأعضاء كما لو أنه بلا فائدة . لأنه تسبب الانحلال الثاني يكون من الانحلال الأول .

... ومن لكنه يضبط ذاته من أن يصنع دالة حتى الكلام مع نفسه . فالذي يحترس فيما يخصه ، ويقتني عوائد جيدة في جسده وجميع أعضائه باحتراس متعفف ، ويكرم الله بنفسه وجسده ، معروف أيضاً أنه إذا التقوه ووجد ذلك المتحفظ خارج قلايته ، فإنه يتروى على جميع أعضائه بحياء نظم قبالة كل عارض يصادفه .

ويقتني تلك الصيانة بسائر حواسه ، لأجل تأسيس العادة التي اقتناها في الخفاء داخل قلايته .

لأنه حسن نظام العوائد داخل القلاية يعلمه الحفظ خارجاً .

لأن الذي يتدبر في قلايته حسناً ، لا يمكنه ألا تظهر فيه إذ يكون خارجاً ـ تلك الأنواع الحسنة .

استعمال الحواس وبطلانها:

الإنسان - ما دام هو جسمانياً ونفسانياً - فهو مفتقر إلى الحواس. فإذا بلغ الروحانية، بطل احتياجه إلى الحواس. لأنه حيث تكون روح الرب فالحرية موجودة.

كل ما يرتقي الإنسان إلى معرفة الحق، ينقص من فعل الحواس، ويزيد في صمت الإفراز دائماً. وبقدر ما يقرب من تدبير العالم بعمله، فإنه لذة الحواس ويقطع تكثر فيه.

تتغلب هذه الحياة لخدمة الحواس أُعطي. والتدبير المزمع أُعطي لفعل الروح. حتى ولا في هذا العالم تحتمل الحواس أن تصادف هذا السر، بل تتخلف عن عملها كما في النوم. وليست هي تصادف هذا الا السر الذي يُعطى عربوناً، بل الإنسان الجواني.

إن كان العنصر الذي هو الآن يستعمل الأجسام وفرز الحواس الجسمانية، ولأنه ثم وقت لا تكون فيه الأشياء التي تفرزها الحواس؛ فمعلوم إذن أن الشيء الذي من أجل هذا لا حاجة بعد إلى استعماله.

٤ - الحبس في القلاية

حث على الوحدة والتجلد فيها :

كل

كل من هو محب لله، يحب الحبس والثبات في القلاية.
إن كان الفاضل في البشر، فالعابد في الوحدة.
حب الوحدة، ولو أنك عاجز عن جميع حقوقك.
[من فضائل الراهب] ... ويثبت في القلاية بسكون من كل أحد.
أما تشعر أن عمل القلب والتجلد في الوحدة، هما غاية العمل؟!
إن الطائر يسرع إلى وكره من كل مكان ليفرخ. والراهب الحليم ذو الإفراز يبادر إلى قلايته ليصنع فيها ثمر الحياة.

كما أنه بجلوس الطير على البيض يسخنه ويصنع فراريج السلام، هكذا أيضًا هو المتوحد، ما دام في سكون القلاية، فهو مثل البيضة، والنعمة تحل عليه وتكون مثل الأم. وبالحب الإلهي يسخنه ويحيه بالروح، ويورد في قلبه ثمر الروح.

وأما الذي يبعد نفسه بإرادته من تحت النعمة - التي هي أم العامة - ويطيش ويتشتت بالدوران، فإنه يبرد ويرذل.

في قلب المتوحد يبتدي الروح بعمل زيارات، عندما يكون جالسًا وحده في سكون الهدوء تحت ظلال الرب. وذلك أولًا بسبب غصب ذاته واستعداد نيته للتدبير في السكون.

أوقات كثيرة يتفق وسط الساعات بالتدبير، أنه لو أعطيت للمتوحد مملكة الأرض، ما يطيعه أن يخرج من قلايته في تلك الساعات، ولا يرى أن يدعو له أحد. لأنه قد اتفق له وقت التجارة والربح بغتة.

إن كان واحد من الشباب قال إن الجلوس في القلاية فقط،

الة بغير عمل ، وحفظ الحيطان لتأجيل اسم المسيح ، هو انتظار رجاء عظيم
بالآلة الذي يستعمل هذه الإشارات في نفسه من أجل ذكر الله الدائم ؟!
شياء عظيمة يال .

لصبر على أحزان القلاية :

أحبب الآن الصبر على الوحدة ، والرضا بما يريده الله .
أعدد نفسك للجلوس مع الآلام والشياطين . ولا تضجر إذا ما
انضربت وأخذت الجراح في وجهك من كل عدو يحاربك .
ولا تعطِ قفاك وتهرب من قلايتك كمهزوم ومغلوب . بل انتظر
بالصبر والرجاء الحقيقي الغلبة التي يعطيك إياها ربنا في السكون من بعد
مدة جلوسك وكثرة النياح والفرح اللذين تحظى بهما .
ولا تكن كالجهال البله للخليين ، الذين وقتما يكونون غالبين
ومنتصرين ومرحين ومنيرين يجلسون في السكون والحبس ، ووقتما يضيقون
أو يجربونهم أو يغلبونهم أو يسقطونهم ويضايقونهم وقتئذ يتركون السكون ويهربون !
إسمعني يا أخي . مثل الذي يريد أن يقتلوه ، إحترس ألا تخرج
من قلايتك ، ولكنه هو ملقى في عذاب وعقوبات شديدة .
رؤية العدو أكثر من كل شيء يحتال أن يخرجك من قلايتك لأجل
قلة صبرك من وقت المعركة .
لأجل أن الشيطان دفعة واحدة يملك بالضجر ، ويغلبك
ويخرجك من قلايتك لتفاشل وتخاصم .. هو أيضا خارج القلاية
يقودك ويسوقك ويفصلك عن عمل كل صلاح . ويجعل قبالتك شرورا
وربما يردك إلى العالم أيضا
الذي ما تعمل [illegible] والملل والضجر من وقت الحداثة

ويفرح بحمل صليبه ، والاحتقارات والآلام المؤلمة ، وبقية أحزانه
القلالية ، مثل عمل تام قدام الله ! بل يريد الانشراح والراحة منها بالكلية :
هذا من غير أن يشاء ، إلى يد شيطان الزنا يُسلم ، وعوضاً عن ذبيحة
جسده الزكية التي بهؤلاء يقرب قدام الله كل يوم ، يذبح للشيطان
ذبيحة دنسة من أعضائه !

صدقني يا أخي أن الضجر والملل وثقل الأعضاء والجسم وتكدر
الضمير وبقية الحزنات الحادثة على الساكن بالجلوس العريض ، هي عمل الله التام !
ولا تظن أن الاستضاءة بالخدمة ونقاوة الضمير والتنعم وسرور
القلب ، والعزاء الذي من الروح الحلوة ، والهدية المعطى من الله ،
هي فقط عمل الله .

بالحق وحسب رأيي أقول : حتى فكر التجديف والحب الفارغ
وحركات الزنا النجسة التي بتعصب تحدث للمتوحد في سكونه القلالية ، وتألمه
بسببها ، ولو أنه يوجد مغلوباً في وقت ما قدامها ، ولكنه يصبر ويحتمل
وما يخرج من قلايته ، حتى هذه تحسب له ذبيحة نقية وحملاً إلهياً !!
ما خلا فكر لحظة فقط . لأنه في جلوس تجلد وصبر على اليمينيات
واليساريات العارضة عليه داخل المصاف .

إن لم يكن حدوث ذلك بسبب إهماله وإمالة ، بل بنوع القتال
تتواتر عليه فقط ، إن لم ينغلب ويخرج من المصاف الذي هو الجلوس
الرزين في القلاية .

فوائد الحبس في القلاية:

اعلم أيها المتوحد، أنك من حيث تحبس في قلايتك لتتنعم بمحبة ربنا وتكميل وصاياه، تُعطى لك قوة لحفظ بعض الوصايا التي تشاء حملها. وبعض الوصايا الأخرى التي لا يمكنك حملها، أجرها محفوظ عند الله، لأجل حزنك على عدم عملها وعدم اقتنائها.

واعلم أنه في قلايتك يمكنك أن تعمل بالوصايا. وأما خارج القلاية، فولا لهذه الإرادة لمحبة الفضيلة تثبت فيك، إذ تشترك الحادثات البشرية واضطراب الأعمال.

القلاية هي كنز الأولى. وبلد الثاؤريا ومأوى المعرفة، ومكان الفرح، تكون التجارب، ورجوع النفس، والندم على الخطية، والتذكر بالموت على الدوام. وبها تستيقظ في العقل جميع الثاؤريات حسب مقدار منزلة الإنسان، وسريعاً يمتد إلى الأمور العظيمة.

إن لم يرتبط الجسد أولاً بعمل الفضيلة، لا يتفاوض الفكر بفلاحة الفضيلة. لأن الجسد المنفرد يصلح لعمل الفضيلة، إذ أنه منه يقتني ذهنه هجوعاً وضميراً هادئاً وأفكاراً غير مضطربة بأمور العالم.

العقل المتوحد يتولد من تفرد الجسم. وحسب اختلاط الجسد هكذا اختلاط الضمير.

الوحدة تشركنا مع العقل . والنقاوة أيضاً من أجل وقت تدنيها بغير تعويق.

يقتضي الجلوس المنفرد هدوء العقل وعدم التشتت.

والأعمال بالضرورة تحرك الحسد، بواسطة الحكمة التي تولد في القلب حركات مدهشة.

اغصب نفسك أن تثبت في قلايتك في السكون.

وتحقق أنه طالما أنت فيَّ، صوابك مصانة، وأفكارك [illegible]
وحين تقبله تقبلك محفوظاً منه، وتكون شيئاً آخر غير ما أنت عليه في
كل أمورك، وبالصلاة المتأملة في خطاياك.

لسنا نقدر أن نغلق الباب الأوسط [باب الحواس]، إن لم نغلق
البراني [باب القلاية]

اعلم أيها الأخ أننا لهذا السبب يجب لنا أن نكون داخل القلاية:
وهو لكي لا نعلم بأمور الناس الردية. بل نكون كل البشر في أعيننا صالحين
وأفاضل، ونصل بفكرنا إلى الزكاوة.

حبس الجسم والعقل داخل القلاية، يقمعان الجسم من الآلام اللحمية.
آلام الجسد: الغضب - الشهوة - محبة المفاوضة - الحديث الباطل،
وما يشبه هؤلاء. وهؤلاء يهدءون ويصمتون بالصوم وخدمة الأوقات
والجلوس المنفرد بغير طياشة.

والذي يروم من دون هؤلاء أن يسكت الآلام الجسدية،
إنما يشقي نفسه.

ومن حيث يجلس المتوحد في القلاية ويعمل بالوصايا، يصير عمله
دواء للضعيفين، وتنقى عينا نفسه من صدأ الآلام الذي يحجبها،
فتنفتحان وينظر بعيني إيمانه ربما شمس البر الأعظم أو الخيرات السمائية.
ويوماً بعد يوم يتشبب بالرجاء، ويقتني عمل الوصايا بالفرح الإلهي.

الذي يطرح الأحزان ويترك لزوم مسكنه، بغير إرادته يضطرب
لحب الذنوب والخطايا كرهاً؟ لأنه خلواً من التعب والحبس، لا نقدر
أن نبتعد عن المجاذبات بالفكر. لأنه بمقدار ما يتكاثر التعب،
على ذلك الحد تقل هذه المجاذبات.

ينبغي لنا جداً الجلوس وحدنا، لكي نبكي وننوح على أيامنا التي جازت
فارغة واضمحلت باطلة. وليس أحد ينفعنا يوم الموت - لا إخوة
ولا أصدقاء.

.. إن لم تستطع أن تكون شعلا، اجلس في قلايتك، وابكِ على خطاياك». هكذا قال أولئك السواح للقديس مقاريوس.

لأجل تجربة حروب الشياطين، اجلس في قلايتك في السكون لتأخذ تجربة حروب الشياطين.

علاقته ببعض الفضائل:

الصلاة تتقدمها الخلوة، والخلوة هي من أجل الصلاة.

والصلاة لكيما نقتني حب الله، لأنه فيها نتخذ أسباباً لنحب الله.

والصلاة تكون بالقلب المنفرد، أي بالخلوة والانفراد لأجل الصلاة، لأجل أن يكون لنا بالوحدة مكان نتحدث فيه مع الله.

وأيضاً يتقدم الخلوة رفض العالم. وإن لم يترك الإنسان العالم أول كل شئ ويتفرغ ويتعرى من كل ماله، ما يقدر أن يتوحد. وهكذا أيضاً ترك العالم يتقدمه الاحتمال والصبر وبغضه العالم.

ويتقدم بغضه العالم، خوف جهنم والشوق إلى ما فوق.

وإن لم يخف الفكر رعب جهنم وتجذبه محبة الخيرات، لا يترك فيه بغضه هذا العالم. وإن لم يبغضه العالم ما يصبر على عدم مفاوضته ونياحه. وإن لم يتقدم الصبر في العقل، لا يقدر أن يختار له مسكناً ممتلئاً من الوحشة وخالياً من السكن. وإن لم يقدر أن يختار له حياة منفردة، ما يقدر أن يدوم في الصلاة. وإن لم يداوم الحديث مع الله ويتثبت في تلك الحركات المرتبطة بالصلاة وأنواع التعليم التي قبلت، ما يحس بالحب.

مضار طياشة الجسد :

إني جربت زماناً كثيراً في اليمنة واليسرة، وتكلمت في هذين الضربين بتغيرات شتى. وقد قبلت من جهة المعاند ضربات غير محصاة عدة مرات، وأكلت لطمة عظيمة في الحفاظ. واقتنيت في ذلك تجربة مدة سنين. وفهمت كنه الأشياء بالاختبار وهو:

إن أس كل الخيرات ونشل النفس من أسر الأشرار، والطريق المؤدية إلى النور والحياة، يتوجه من أمرين: أن يلتزم الإنسان موضعاً واحداً، وأن يصوم دائماً؛

أعني أن يقضي نفسه بإمساك البطن إمساكاً ذا حكمة وصحة، من جلوس غير متزعزع لا يحول عنه دائما، ويشتغل دائم. ويهذين بالله تعالى. من هذا الموضع يكون جمع الحواس وخضوعها. ومن هذا الكان يتوجه تيقظ العقل ...

وكما أن هذين الأمرين لهما في النفس مبدأ ورأس كل عمل الرأي، وباب وطريق إلى السير تعالى، إن تمسك المرء بهما ولازمهما؛ كذلك إنه انفصل عنهما وتباعد منهما لاقى ما يقابلها. أعني التوسع الجسماني الذي هو طياشة الجسد، ونهم البطن على السبيل السيء. كذلك هذان الأمران مبدأهما يضاد ما تقدم ذكره، ويصلحان للآلام ملكاتها في النفس.

أما المبدأ الأول [طياشة الجسد] فإنه:

أولا يبلد جم الحواس ويطلقها من رباطها بعد أن كانت خاضعة متيقظة.

فإن سألت وقلت "ماذا يحدث الآن من هذا الأول؟" أجبتك:

إنه من هنا تأتي أمور شنيعة لم تخطر على بال، وتقرب أمكنة الآل والتوهم، ومصادمة ملاقاة سيئة، ويتوجه اضطراب أمواج قوية.

ولهيب الهيوى الكائن من النظر المسقوط على الجسم، والجامع في القلب نزوات سهلة بالفكر.

وأفكار غير ممكن انضباطها، سريعة نحو السقوط.

وفتور الاشتياق إلى أعمال الله عز وجل.

والاسترخاء قليلاً في إتمام السكون وفي استيفاء القانون بالكمال.

وتجديد الشرور القديمة التي قد نسيت.

وتعلم أشياء أخرى لم يكن ذلك الإنسان يعرفها من أصناف المناظر والساعات التي تلم به دائماً من غير إرادته، لأجل انتقاله من موضع إلى موضع ومن مكان إلى مكان.

والآلام التي كانت قد ماتت من النفس بتفضل الله تعالى، ونسيت وزال ذكرها من الفكر: تبتدئ بالتحرك والنهوض وتضطر النفس إلى فعلها.

والخوف من الإسهاب، أمسك عن إيراد كل ما يتبقى.

وأقول إن هذه الأحوال تنفتح عليه من العلة الأولى، أعني من التوسع الجسماني، أي المعيشة وترك ملازمة تعب الهدوء...

...فالأولى بنا جداً، ألا ننتزع من مكان سكوتنا وننزل إلى حيث تتوجه لنا العوارض بسهولة. ولا نصطنع لنا أسباباً وحججاً لكي نخرج من البرية، لأن هذه هي مكيدة المحتال الظاهرة.

قوانين الحبس في القلاية:

ولست أقول عن الذين يسكنون السكون بالاسم، ولهم من يدخل إليهم ويخرج كل يوم. بل عن الذين يسدون بابهم ولا يفتحونه من يوم الأحد إلى يوم الأحد. وما لهم مع أحد حديث ولا مفاوضة ولا يبصرون إنساناً. ولا يلاقون أحداً، ولا يحضرون الأعياد والكنائس حيث الجماعات.

لأن المتوحد ليس له عيد غير الأحد. عيد المتوحد هو حزنه ونوحه.

وعوضاً عن الأعمال التي يفتخر بها يعيدون بالذات مع بعضهم لبعض.

هذا عزاؤه هو شقاؤه في السكون.

تربية التدبير الانعزال من الكل.

إن التعود لك سهود جيد، ولا تريد أن تخرج من قلايتك.

ولا أن تتناول من الأسرار المحيية، فبأفكار متضعة وحزن عبرّ ليلة الأحد وزمن الأعياد، وافرز لك عملاً لأجل ذكر كرامة جسد الرب ودمه. وإن لم تقدر أن تعمل بحسبه شيئاً تزيد على قانونك لأجل الضعف، افرز بفكرك حزناً وندماً قائلاً أنا خاطئ ومذنب.

الذي جسده صحيح وقوي، ويكمل من تكميل قوانينه العمل [قوانينه الجلوس في القلاية]. لا يقدر أيضاً أنه يثبت في القلاية على الدوام.

[من عمل المتوحد] ... ثبات داخل القلاية في الدير. ومن غير ضرورة لا يخرج منها، ما خلا للصلاة أو للتناول من الأسرار يوم الأحد، أو لأمر ضروري للجميع.

[من عمل المتوحد] ... ثبات داخل القلاية في الدير. ومن غير ضرورة لا يخرج منها، ما خلا للصلاة أو للتناول من الأسرار يوم الأحد، أو لأمر ضروري للجميع.

مكرر

أولاً يعد الإنسان ذاته، ويكرّ لنفسه قانوناً أنه في مدة الأسبوع بالكلية لا يخرج من قلايته.

وإذا لم يقدر على الحبس الضيق مثل الأقوياء، ولا الأسبوع جميعه مثل المتوسطين، فلا يفتح بابه كل يوم ويمضي إلى أخيه، ويركب له أسباباً ويطيسه خارج قلايته. هذا جميعه يقدر أن يعمله ضعيف الجسم.

ولا يكون خروج ودخول على الدوام باختلال، خارجاً عن أمر ضروري.

ويكون منقطعاً عن كل أحد، لكي يقتني سكوناً بسكونه.

ولا يفسح لأحد من الناس أن يجيء إليه.

ولا تكون قلايته مزاراً للكثيرين .
وإن أمكن ولا من الطاقة يتكلم مع أحد .
لا يتكلم مع الإخوة ، ولا مع خادمه .
يغلق نفسه في قلايته منفرداً ، لئلا يقتني إعتياد الخلطة مع كثيرين ، ما خلا مفاوضة شيخ واحد مشهود له بحسن السيرة ومعرفة عمل السكون ، ومعه فقط يتكلم ، لكي يتعلم تدبير الوحدة . ومع إنسان آخر لا يتفاوض أبداً ،
ومع إنسان آخر لا تكون له مفاوضة منذ ذلك الوقت ، لكي في وقت قليل يؤهل لمذاقة المعرفة .

أو كيف يذوق حلاوة السكون ، إن لم يسبق له أن يذوق مرارته ؟ وكيف يذوق المرارة ، إن لم يؤلمه الضجر ؟ وكيف يقاتل بالضجر ، إن كان خادمه يدخل إليه ، أو يتكلم معه من الطاقة أو مع الذين يطلبون أن ينظروه ؟! ولا أيضاً صعوبة القتال مع الشهوة وتخويف الليل يتملكان منه ..

لأجل هذا حذر الآباء ، أنه بدون رهبة أو ضرورة ما ، لا يتكلم المتوحد مع إنسان .

لأنه إذا فتح قلايته مرة واحدة في سبب إنسان ، ما يهدأ الشيطان عن أن يجيء إليه بأناس بأسباب كثيرة ، مع لقاء دائم كثير ماله عدد في شأن ذلك .

ويكون مجتمعاً إلى ذاته في كل وقت . ويكون غير معروف بين الناس ، ولا مرتبطاً مع أحد بمرافقة ، ولا يكون له تعلق بإنسان وأن يكون موضع سكناه هادئاً . وأنه يهرب من الناس كحمار الوحش ...

الذي هو في الحبس والسكون ، وما يقطع نفسه من كل تذكار واهتمام ، ويبتعد عن كل مفاوضة ، ويداوم على السكون باستقامة ومحبة الأتعاب ؛ هذا لا الخطايا القديمة يذكر ، ولا زلاته في كل يوم ينظر ،

ولا آلامه يعانيه ، ولا لجاذبية الشياطين يخضع ، ولا للجهاد مع (الأبالسة) والشياطين يستعد ، ولا لقيادة القلب يصل ، ولا للصلاة الطاهرة يستطيع ، ولا نور مجد المسيح الإلهي يشرق باستعلانات الروح داخل نفسه .

ثلاث سنين في سكون دائم كان من غير تشتت ولا انشغال ، مع تكميل واجباته ، وهو محبوس في قبر القلاية ، ومستتر من حركات هذا العالم المزعجة ، حتى تُنسى الحيل والأشكال والعوائد وتصرف مفاوضات هذا العالم بالكلية ، وينهض الإنسان الجديد بشبه صورة الله خالقه ، وينفخ فيه روح العزاء الحقيقي ، لأن خيرٌ من سكون سبعين سنة بتشتت ، يهدم ويبني ويهدم ، بلا فائدة !!

ويشهد على كلامي هذا ، ذلك الشيخ القديس الذي قال : هناك من يجلس في القلاية مائة سنة ، وما يعرف كيف الجلوس فيها !!

أعني الذي ما يغلق باب القلب الجواني الذي داخله يسكن المسيح الملك ، ويجاهد لكي يغلق البابين الخارجيين [بابي القلاية والحواس] بتعب كثير وعناء .

فكالحكماء

وأما نحن (فكالحكماء) العارفين بالطريق التي تقطع الدورات الكثيرة في الجبال ، نحترس في جلوسنا داخل القلاية أن نغلق الباب الذي داخله المسيح يحل [باب القلب] . وإذا ما أغلقناه جيداً ، ندنو بعد ذلك منه للمفاوضة معه .

فإن كنا نفتحه قدام كل أحد ، نحن لكثرة الداخلين والخارجين ، لا الملك يكون له وقت ليدخل ، ولا نجد نحن منه فسحة للكلام معه .

اشتهيت أن ألقى متوحداً هادئاً نقي الحب ، منبسطاً مع كل أحد ، مع صمت ثابت وصحو في كل وقت ، وفي كل وقت يثبت عدم تألمه ، فما وجدت !

لأن كل من يجلس في القلاية ، ويغلق % بابه جيداً ، ينتقل داخل

مثل الجحيم، ولا يكون لفكره راحة. وإذا ما خرج من قلايته، ما يقدر أن يمسك ذاته، لا بالحواس ولا بالحركات الداخلية، ويبقى مثل حجر نجس من أساسات المدينة قدام كل أحد.

إلا من يكون غير قادر على الصبر على السكوت والحبس في القلاية، وهو منحل وحواسه سائبة بالخلطة مع كل أحد. ولكن على كل حال، إن لم يقدر على إحكام ذلك - لأن وجود الإنسان داخل الباب إنعام من الله - فلا يتخلف عن الطريق الأشرف. لئلا يعدم طريق الحياة.

ما لك وطريق مصر لكي تشرب ماء من جيحون! إفهم الشيء الذي أقوله لك:

أظهر للعدو صبرك في الصغار، لئلا يلتمس منك الكبار.

ولكن لك هذه الصغار جهاداً لتقهر بها شيطانك، فلا يتفرغ لكي ينصب لك فخاخاً كباراً.

لأن من لا يطيع العدو، ولا يخرج من مكان سكوته وهدوئه ولا خمس خطوات، كيف يجب أن يخرج من البرية أو أن يدنو من قرية؟!
ومن لا يسامح أن يطلع من طاقة قلايته، كيف يطيع أن يخرج منها؟!

قد بان إذن أن الإنسان إذا تهاون بالصغار واقتهر لها، فإنه يوجد للعدو سبيلاً إلى محاربته بالكبار...

هذه هي حرب الإفراز، أي حرب الحكماء. وفيها الحكماء المحترزون ما يتساهلون أن يدخلهم العدو إلى المخالفات الجسيمة. بل صبرهم الظاهر في الصغار هو الحافظ لهم من مباشرة الأتعاب الكبار...

قد تود الطبيعة في بعض الأحيان الراحة. لأنها طبعاً تحب الراحة والدالة والضحك والمحادثة والفرجة والانشراح والتضجيع!! فيحدث ينبغي إتمام ويحرك الخاطر. وفي بعض الأوقات يشير العائد لهذه الأمور. ولكن ينبغي لنا أن نتحرص عن الأتعاب العظيمة

مثل الجحيم ، ولا يكون لفكره راحة . وإذا ما خرج من قلايته ، ما يقدر أن يمسك ذاته ، لا بالحواس ولا بالحركات الداخلية ، ويبقى مثل جرس في أسواق المدينة قدام كل أحد .

إلا من يكون غير قادر على الصبر على السكوت والجلوس في القلاية ، وهو منحل وحواسه سائبة بالخلطة مع كل أحد . ولكنه على كل حال ، إن لم يقدر على إحكام ذلك . لأن وجود الإنسان داخل الباب إنعام من الله . فلا يتخلف عن الطريق الأخرى . لأنه يعدم طريق الحياة .

مالك وطريق مصر لكي تشرب ماء من جيحون ! إفهم الشيء الذي أقوله لك :

أظهر للعدو صبرك في الصغار ، لئلا يلتمس منك الكبار .

ولكن ليكن لهذه الصغار حدًا تتقدم إن أتت إليك ، فلا يتفرغ لك ينصب لك فخاخًا كبارًا .

لأن من لا يطيع العدو ، ولا يخرج من مكانه سكوته وهدوئه ولا خمس خطوات ، كيف يجب أن يخرج من البرية أو أن يدنو من قرية ؟!

ومن لا يسامح أن يتطلع من طاقة قلايته ، كيف يطيع أن يخرج خارجًا ؟!

قد بان إذن أن الإنسان إذا تهاون بالصغار وانقهر لها ، فإنه يوجد للعدو سبيلًا إلى محاربته بالكبار ...

هذه هي حرب الأفكار ، أي حرب الحكماء . ومثل الحكماء المحترزين ما يسامحون أن يدخلهم العدو إلى ذي الشهوات جميعها . بل صبرهم الظاهر في الصغار هو الذي حفظهم من مباشرة الأتعاب الكبار ...

قد تود الطبيعة في بعض الأحيان الراحة . لأنها طبعًا تحب الراحة والدالة والضحك والمحادثة والفرجة والنياح والتضجيع !! فيحدث ينجذب إلى الكلام ونحو الخارج . وفي بعض الأوقات يشير لعائد هذه الأمور . ولكن ينبغي لنا أن نتحرص عن الأتعاب العظيمة

و الأسباب الحقة بأتعابنا الحقيرة الزهيدة القليلة التي يُظهره أرباب الرشى؟
لأنه إذا ما تراخينا بهذه الأمور، تهدم جداريات عظيمة هذا مقدارها،
وأتعاباً عتيقة التقويم، ومنازعات متواصلة، وجراحات شنيعة عظيمة.
من ذا الذي يحرص بتوسط الأتعاب اليسيرة التي للمدخل، أن يصادف
الراحة الهنية ؟!

الحبس في نظام القديس مقاريوس :

إعلم أنه في أيام القديس مقاريوس ما كان [الحال] مثل زماننا
نحن . ولو تكون أيامنا مثل ذلك الزمان الذي كان فيه القديسون،
ما كانت هناك ضرورة على الإخوة المبتدئين للحبس في أسابيع محدودة .
لأننا نعلم من الكتاب الذي وضعه القديس مقاريوس، أنه
بالكلية لا يخرج الأخ المبتدئ من قلايته في وسط الأسبوع .
ولا يزور أحد أخاه أيضاً" .
بل في يوم السبت يخرجون من قلاليهم وقت العشاء، ويأتون إلى
المجمع (وهم صيام) . لأنه طول السنة صيفاً وشتاءً" كانوا يتقربون عشية السبت.
فلما كان الآباء والإخوة يخرجون ويأتون إلى المجمع ليسمعوا القراءة،
لذي كان يتلونه وما يحفظ، كانوا يقطعونه عليه بحكم صعب .
ومن بعد أن يتقربوا يدخلون إلى المائدة .
ومن بعد الأكل يقفون للصلاة ليلة الأحد سهرانين بلا نوم
من العشية إلى باكر، بخدمة المزامير والتسابيح وقراءة الكتب وتفاسيرها
ومسائل الإخوة وأجوبة الشيوخ، ويتربون منهم بالمواعظ .
وما كانوا يعطون فسحة للشيطان ولا لأحد من الإخوة المتكلمين
أن يتكلم كلمة تجلب خسارة لأحد .

ولا أحد يغلب رفيقه، ولا أحد يحرك خصومة.

ولا أحد يطلب ذكر شيء من العالم أو من سيرته البطالة، كما لا يتأذى أحد من الإخوة الحريصين.

بل إن كان أحد يتأذى في زاويته إما من شخص أو قتال، عندما كان يخرج إلى الجمع، كان ينتفع بمنظر الأخيار، ويجبر بالفترة لما جاز، عندما ينظر أعمال الأخيار ويسمع كلامهم ويشاهد نظافتهم. فيتزود بمعونة جديدة معونة في العمل والجد في صحبة من نظر وسمع.

ومع أن هذه المعونة كذلك كانت تحصل من اجتماع ليلة الأحد، إلا أنهم مع ذلك ما كانوا يفضلون الإخوة أن يخرجوا وسط الأسبوع!

وأما في زماننا هذا العادم من الاستقامة، الذي برد فيه الحب، والحرارة تخلفت وعديم التحفظ، ففي كل وقت نخرج إلى الجمع، نخسر خسارة ليست بقليلة بسبب كلامنا البطال، ولا تكون في صلواتنا قوة.

والآن فينا إخوة حريصون يتشتت حرصهم طول الأسبوع بسبب الكلام الرديء الذي يسمعونه من المعتادين الانحلال ...!!

تدرج:

فإن كان [المتوحد] يحفظ سكونه الأسابيع، ويعمل داخل سكونه بحفظ الحواس وجمع الأفكار بمقدار قوته وحسب رتبته. لأن الله ما يطلب من الإنسان أكثر من قوته [illegible] يخرج [illegible] الجمع ليلة الأحد: إن نظر أنه ما يأتي إلى قدام، ولا ينجح [illegible] الأعمال، ومحبة الثبات في القلاية، بل كم من الوقت يخسر من النظر ومن السمع، وما يقدر أن يثبت في الحرص. وتنتشر عليه الجاذبات، والحياط لأجل الأمور الطارئة وغير النافعة، وينحط إلى الانحلال والظلام، ويضعف الثبات في القلاية، وتوسوس له [illegible] أن يدخل ويخرج [illegible] لكي العادة الدخول والخروج.

معذور المتوحد إذا لم يفتح قلايته للطارقين :

في أوقات كثيرة يحدث وسط ساعات النهار، أنه لو أُعطيت للمتوحد مملكة الأرض، ما يطيع أن يخرج من قلايته في تلك الساعة. ولا يريد أن يراه أحد. لأنه قد اتفق له وقت التجارب والرياح العنيفة.

فلا يلم أحد المتوحد في الأيام التي يحل فيها قانون الحبس، إذا ما تعطل عن الصلاة الجامعة. وبالأكثر إذا ما كان [اللوم] من أولئك المعروفين بالكسل والمشهورين بالحديث الفارغ، ولم يكن إبطاله لأجل لأجل رغبته في الشغل باليدين.

اعلموا يا إخوتي أن عملنا ليس تجاه الناس يكمل. لأن لنا عملاً مخفياً عن نظر البشر، هو غير معروف للمبتدئين والعلمانيين. وأن المتوحد - تحت الانفصال - ليس له سلطان على ذاته.

وإن اتفق أن يأتيه إنسان ويدق بابه ولا يجيبه، فليرجع من ساعته، ولا يلم أخاه، لأنه ما يعرف في أي أمر هو في تلك الساعة.

لأن قلاية المتوحد مغارة الصخر - حسب قول آبائنا - حيث تكلم الله مع موسى.

والرهبان غير المختبرين في العمل وفي لذة السكون الحقيقي، لا يعرفون هذه الأشياء، ويدينون أخاهم ويحتقرونه. لأنهم يريدون أن يكمل لهم بالموافقة.

لأن ثم وقت يكون فيه المتوحد مثل ما صُرع، ويكون في تلك الساعة في شدة وضيق، وقد وضع يديه على صدره، وهو ملقى على الأرض، ويتضرع إلى الله، ولا يقدر أن يسمع صوت إنسان.

يعرف هذه التغييرات الذين قد ساروا في هذا البحر، واختبروا الرياح التي تهب فيه.

٥- بعد المسكن :

للبعد عن أسباب الخطية :

صعب هو جداً وخطر بالحقيقة الجهاد الذي يكون بواسطة الأمور، ولو أن المحارب يكون فاتكاً شجاعاً جداً. لأن الأمور إذا ما كانت قريبة من الإنسان، حركت عليه القتال من غير معاندة الأعداء. والخوف والرعب لاصقان به، والسقطة سهلة عليه، أكثر من أن يصادف الشيطان هو بذاته بالحرب الظاهرة إذا ما ظهر العدو تجاه عينيه.

لأنه كلما كان الإنسان غير مبتعد عن الأشياء التي يخاف منها القلب. فعلى الدوام للعدو عليه سبيل كل وقت يضجع فيه أو يعرض له إهمال قليل، لكي يهلكه بسرعة.

أما في البعد، فإنما يخاف من أن يحصل للجسد، وأما أسباب الخطية فبعيدة عنه على كل حال.

وأما بالمباشرة فتقبل النفس جرحاً غير منظور، ولا يتعب العدو في الإدماء. لأن مباشرة الأمور ذاتها، فيها كفاية لتحريك الحس والاضطراب في كل وقت. وبغير الإرادة ينساق باليسر معهم، ويُسبى بدون أن يصادفه العدو بالقتال من الخارج.

لأن الإنسان هو يجلب لذاته الحرب بمحاذاة الأشياء، الموضوعة تجاه حواس الجسد. حسب قول القديس يعقوب السروجي أنه إذا انضبطت النفس بمصادمة العالم المنظور المحسوس، فإن هذه المصادمات تكون لها شتاته. وشكل الطبع تنقهر وتتغلب إذا كانت مصاقبة إلى وتجاه العين.

ولهذا لما عرف القديسون القدماء الذين ساروا في هذه الطريق: أنه ليس في كل وقت يكون العقل في صحوة ويقدر أن يثبت في رتبة عدم المبالاة محتفظاً بذاته، لأنه في أكثر الأوقات تحصل للنفس في ظلام ولا تقدر

ـه ترصد الأشياء المؤذية ؛ لهذا بحكمة تميز الآباء ، وتسلحوا بالتجرد مثل
ـيس ، لأنه يعتق من جلدات كثيرة وينجي . حسب ما كتب أنه تم من
ـفات من الخطأ لأجل نفسه .

ولذلك هربوا إلى البراري والقفر ، حيث لا توجد في الأمور
ـلتي لها أسباب السقطة .

لأنه إذا ما عرض لهم وقت يطلبون فيه من القتال ، تكون
ـسباب السقطة غير موجودة . أعني بهذا الشهوة والغضب والرياء
ـالمجد الفارغ وما تبقى . لأن هذه الأشياء عادمة بسبب القفر
ـذي استقروا فيه مثل حصن منيع لا ينكسر .

ولهذا استطاع كل واحد منهم أن يكمل جهاده في السكون ، حيث
ـا تجد الحواس فرصة لتكون خصوصاً في الجهاد بمصادمة الأشياء المؤذية .
ـنه ينبغي الموت في الجهاد ، ولا الحياة في السقوط .

لأنه حسناً نكون بعيدين عن الفعل لأجل عدم المادة ،
ـلو أن الضمير قد ينغلب ويتراخى ، إلا أننا بسهولة نرجع إلى التوبة ،
ـندم على فشلنا ونحزن ، ونلتفت بحرارة إلى عملنا .

فإن كنا بقرب الأمور وعلى اللقاء الدائم مدمنين ، فهذا خطر
ـجل الأسباب التي تركبها ، أو بنوع العارض يستعد لنا ذلك ؛
ـينئذ ولا واحدة من هؤلاء نتمكن من أن نفعل . حتى ولا من الفعل
ـقدر أن نسأله أنفسنا ، ولا على سقوطنا نندم ، ولا إلى عملنا نرجع
ـي نشترك ذواتنا ونحزن وبالتوبة نتجدد ونطهر بالفعل بالحزن الحار .

كم من نفع ومعونة يحصل للذي هو وحده ، وبالتفرد يتصرف ،
ـع نفسه وحده يسكن . ولو أنه كل يوم يسقط من الضعف بالأفكار
ـس أنه كل يوم ينهض ويقوم . وإذ كل يوم ينغلب ، كل يوم ينتصر .
ـأجل المعونة الكائنة من السكون ، يجود الله عليه بقوة لكي يقوم

بالة الأفكار، ويبعد عنه التراخي، ويطهر ذاته بالنقاوة لله.
لا يمكن أن نغلب الأفكار الرديئة التي تتحرك بالتنازل في الجسم،
و نقهر السلاح المتضاعف الموضوع تجاهنا، ولا أن نسكت هذه الأفكار
ـي الشبع من الخبز والماء والنوم، وإلا لدنونا قرب الأمور المحركة للحواس.
فيا لك يا هذا! إن صبرت في برية السكوت، فلن تجرب، لأنك لست
ـرى فيك شراً ولا شيئاً يؤذي سيرتك، ولا تسمع أصواتاً غير لائقة.
ـل هذه مختارة له [للمتوحد] أن يتغرب عن هذا العالم، بتدابير
سيرة الفلاحة، ويشقى في الجبال ويتوه في بلاد الوحوش، ولا يتنعم
الجسد في حياة مملوءة من كل دنس ويعد نفسه للموت في كل وقت،
لا يتخلف عن السيرة العفيفة المرضية لله سبحانه.
إن كنت يا أخي أن بسبب التعب والشقاء في الهدوء والوحدة
ضعف نفسك وتحزن. لأجل أن تنظر هذه الحياة وقد اضمحلت،
الجسد قد تخلف وضنى، وتنظر فكرك وقد ضعف وفزع من هذا الأمر:
ضع قبالة هذه فكراً عادلاً وصير مخافة الله، وعز نفسك بهذا الشي
ـذي لتوحده: أنه أدفعه لنا حياة تصير بالبر حسب إرادة الله، من
ـر طويل بما يرضيه.

واذكر حياة القديسين القدماء الذين هم صبروا أنفسهم بالقياس
ـى إرادة الله. وعلى مثل هذه الحياة صبروا جميع أيام حياتهم، إن
ـه في المسكونة أو في القفر، إلى حين انتقالهم وتركهم جسد الاتضاع هذا،
بعد جهد كثير قدروا أن يكملوا في مخافة الله، بسبب عطلة الجسد.
ـي وقت انتقالهم من هذا العالم، فرحوا فرحاً عظيماً جداً، لأجل أنهم
ـستطاعوا بضوائق قليلة صارخة أن يتخلصوا من الشرور التي تحارب لكي
ـسد النفس، ووجدوا في وقت انتقالهم في أهلية الله وما يخصه.

سؤال:

بأية حجة يقطع الإنسان عوائده المتقدمة، ويعوّد ذاته في بدء حياته على التصرف بالعوز والذل.

الجواب:

إن الجسم ما يمكنه أن يعيش خلواً من حاجته. وإنما العقل يتمكن من إمساكه عن الغذاء والاسترخاء، بقدر ما يكون بعيداً عن الأشياء التي تحدث له الاسترخاء.

لأنه إذا نظر على التنعم، تستيقظ فيه شهوة مضطرمة.

ولذلك أوصى المخلص تعالى تابعيه أن يتعروا ويخرجوا من العالم.

لأن الإنسان ينبغي له أولاً أن يطرح عنه علل التنعم والتراخي، وبعد ذلك يدنو من الفعل. والرب نفسه جل وعز عندما ابتدأ في محاربة المحتال، إنما حاربه في برية يابسة جداً. والطوباني بولس يرسم لحاملي صليب المسيح سبحانه أن يخرجوا من المدينة. نعم يجب أن نخرج معه ونأخذ عاره، لأنه خارج المدينة تألم.

لأن الإنسان من انفصاله عن العالم وحده أموره، ينسى سريعاً عوائده الأولى، وما يتعب فيما بعد عنه زماناً طويلاً. أما القريب من العالم ومن أسبابه، فإنه يرجع بسرعة تلك المرة.

لأن أسباب الاسترخاء إذا ما بعدت عن الإنسان، لم يتكبد مشقة كثيرة في القتال المضاعف، أعني الذي من داخل ومن خارج.

وأيضاً الإنسان البعيد عن اللذات يقهر ويغلب بلا نصب أكثر من المصاقب لها المتروك من جهتها، لأن الجلاد هنا متضاعف.

ويليق بالراهب ألا يختلط بالمحاربين له، بل وأنه يتحفظ حتى من النظر إليهم، ويبتعد عن القرب منهم. وقولي هذا ليس من أجل البطن فقط، بل ومن أجل كل ما يمتحن به المرء ويختبر به صبر الراهب.

لأنه إذا كانت مناظر العالم الفاضلة تحرك الضمير بالكيفية اللائقة والانصراف إلى فعلك، فمن البين الظاهر أن أمثالها لها قوة على جذب العقل إليه. وإن لم يحدث في الفكر لهذه أمر كبير، إلا أنه قد يلقى من جلود القتالات.

لأن للإنسان قتالاً في كل واحد من أعضاء جسمه، فينبغي له أن يحفظ ذاته ويبعد عنه قتال هذه الأمور.

فإنه إذا دنا منك، يقاسي في كل حال من الأحوال، حتى إنه جاهد من الخير. وذلك أنه ينظر فيواصله الاشتياق. لأنه كلما بعدت عنه يكون له جلد قليل بسببك.

إننا نعاين عقاقير عدة مستترة من الأرض؛ وليس أحد يعرفها لشدة الحر في القيظ. فإذا ما تندت بالماء وفاح نسيم من قوة برد الهواء، حينئذ يتبين كل نوع منها أنه هو من الأرض مدفون.

على هذه الصفة هو الإنسان إذا ما كان من نعمة السكوت ومن أفضل حرارة النسك، فإنه يكون مستقربا من آلام كثيرة. فإذا ما قرب من أمور العالم، حينئذ ينظر كيف ينهض كل واحد من الآلام ويرفع رأسه من موضعه، لا سيما إذا ما تنسم رائحة الراحة.

وإنما قلت هذه، حتى لا يتكل أحد ويثق ـ ما دام حياً ـ بجسمه إلى أن يموت. ولذلك لكي أظهر مقدار المعونة من الجلد المتوجهة إلى الهرب من الحرب وإبعاد ذاته عما ذكرناه.

الأشياء التي تجذب لنا حزناً بذكرها وحزناً، ينبغي لنا أن تنافى، ما أثار ظمأ الضمير وتتلون من معناها. أما الأوجه فإنه تذهب بالجسم إلى البرية لكي نقتنيه صبراً.

وأفضل الأسباب لكي يبتعد عن القتال، لأن الإنسان إذا كان بعيداً عن ذلك الشيء الذي هو سبب قتاله.

ولو أنه يتضيق بالفكر - إلا أنه يكون بالأحوق. لأنه إذا ما انقلب بالفكر وكان الشيء قريباً، سقط أيضاً بالعقل.

للبعد عن نظر العالم والناس:

[عن محبي الله] ... متوحدين منفردين، عادمين نظر هذا العالم.
ما نقدر إذا سكنا مع كثيرين ألا نلقى إنساناً".

ولا زال الذي مثل ملاك الله، أرسانيوس، الذي أحب السكون أكثر من كل أحد، قدر أن يتخلص من لقاء الأشياء والإخوة الذين معه، ولكن ذهابه إلى الكنيسة. وحيث أبصر ذلك الإنسان المتأمل كل طول وكرامة، أنه لا يستطيع إنسان أن يتخلص من هؤلاء ما دام ساكناً قرب الناس، فإن الطوباني - لهذا - أميال كثيرة أبعد مسكنه عن قرب الناس وعن المتوحدين الذين في تلك المواضع. وهذا الذي إنما تعلمه من النعمة، لكي يكون سكونه دائماً.

الميتوتة الجسدانية هي أن يتغرب الإنسان من جميع معارفه وأقربائه وبلده، ويمضي إلى أرض غريبة، ويختار لنفسه موضعاً هادئاً مستكناً أسفل شعبه. حتى لا تستعبده حرية ضيق وأفكار بحقوق الشرفاء والأصدقاء، الأقربين والمعتبرين. وحتى لا ينقسم على ذاته ويتوجع من نيته، بميتوتة الضمير من الآلام وارتفاعه عن العالم، واتحاد الذهن بالله، ويصير هو في الله والله فيه.

[من خصائص الراهب] ... وأن يكون موضع سكناه هادئاً".

هذا هو المتوحد، الذي جعل مسكنه خارجاً عن مناظر العالم. ومسألة واحدة فردية له في صلاته، شهوة العالم الجديد.

يفكر أنه ليست هناك خليقة أخرى إلا هو ومسكنه الله. لا يصير مع الناس، لأنه لم يعد بعد يعرف لغتهم، لأنه قد أكل

للغة الملائكة، وبلى يرتل خفياً بعقله .

للبعد عن الأخوة المتخلين :

لأنه عسر على الكاملين السكن مع كثيرين لأجل اختلاف سير الإخوة. إذ يضطرب الضمير المتحفظ المطلوب إلى الواحد، عندما يسير في جميع السبل وأعمال الفضيلة ... يتضجرون ويتكدرون وسط [illegible] السبل الأخرى لأجل الإخوة المتخلين، لأنه بواسطتهم يصنع الشيطان قتالاً مع المنتظرين الذين يكملون الفضيلة .

كما قال أوغريس : إن الشيوخ العاليين في المجمع يثير عليهم الشياطين الإخوة المتخلين .

ولهذه الأسباب هرب إشعياء من المجامع. مثلما هرب شيشوي وسكن في جبل أنطونيوس . لأنه قال : كنت في الأول مستريحاً مع سبعة إخوة . والآن ما أقدر أن أسكن مع كثيرين، إذ يتكدر قلبي ويتخبط بغير إرادتي .

وآخرون كانوا يبتعدون عن المجامع بالجسد وحاجتهم تكون من المجمع باتضاعهم للإخوة .

ومنهم من سكن المقابر والنواويس والجبال والجزائر، فنجوا حياتهم من الثلم .

للسكون من الأفكار :

لأنه لا يمكن أن تنظر النفس القائم إلى جانب الرطانة، إلا إذا ابتعد عن الكائن وفرح لفنائه؛ كذا لا يمكن أن نقتني نقاوة القلب والسكون من الأفكار، ومن دون الوحدة المبتعدة عن رطانة هذا العالم الذي يجز قدام الحواس ويغشي عيني النفس .

لا يتعلم أحد معرفة حرفة، ويكابد بمقاومة على هذا. لأننا:
إن كنا في سكنى الناس، أفكار الناس تحدث لنا.
وإن كنا في القفر ، أفكار القفر تحدث لنا.
وإن كنا مع كثيرين ، أفكار كثيرين تعرض علينا.
وإذا انفردنا عن كل أحد ، ضميراً متوحداً نقتني.

ما هي أفكار القفر، إلا حركات تخرج من قلب مائت.

وإذا كنا بحركاتنا موتى عن العالم، فلا يمكن إلا أن نتحرك بالله بالضرورة. لأن سكون الحركات العالمية يعطي فسحة وموضعاً للتحرك بالله تعالى. وبخلع الجسد، ضميراً متوحداً نقتني.

البرية القفر لأجل الهدوء الذي فيها، تقتني ميتوتة القلب، وتوسع العقل وتلطفه بالله تعالى، لأجل الشخوص والنظر الدائم إليه ضرورة ليلاً ونهاراً.

كل الآباء القديسين من أجل انقاص المجاهدة مع الأفكار، الذي هو النجا) من السقوط في الطياشة، جعلوا مساكنهم في البراري التي تسبب نقص الأفكار لا كثرتها.

وما قدروا بخلع الجسد أن يجدوا انقباضاً عقلياً في الصلاة بشجاعتهم. إلا أنهم من قلة الأفكار هدأوا ووجدوا هناك فسحة.
واعلم أن هذا لا يمكن وجوده مع مداومة الملاقاة مع البشر والبشريات.

وإن كنت تقول: «ليست لي مقدرة على الحبس دائماً الذي هو بلا انقطاع، ولا البعد الكلي عن العالم بالسكنى المنفرد»؛ فإن كان هذا يا أخي هو حالك، فلا تطلب الشيء الذي ما يحظى بوجوده إلا المتصرفون بما يفوق العالم، الذي هو السكون من تواتر الأفكار، وهو سبب الفرح الحاصل من الانقباض (الانقباض) في الصلاة بعقل واحد متشوق إلى الله تعالى، ومن هاهنا يؤهل لنقاوة القلب،

وبالدوام ينتقل من العالم خارجاً عن إرادته، بقيام العقل دائماً
بالله سبحانه .

بحسب موضع تصرفك، تنقص أو تكثر أفكارك، ولكثرة الجلد يدوم الإيمان .
من السكنى في البعد والتفرد، ثم من وقت يحس المتوحد بأفكار
تفوق الإثم والندم، ولو أنه قليل الأعمال، وهذه من أجل فضيلة البعد
عن الناس . لأنه بقدر ما يبعد الإنسان عن سكنى الناس وعن العالم،
ويتداخل في القفر والبراري، بقدر ما يقبل سكونه وهدوء الأفكار، ولا
يشتهي كثيراً في الجهاد معك .
لأنه النظر القفر بالطبع يميت من القلب الحركات الحالية ويجمعه
من تواتر الأفكار .

فوائد أخرى لسكنى القفر :

ما دامت الحواس تباشر الأشياء، لا يقدر القلب أن يهدأ من
تخايل تذكاراتها، ولا الآلام الجسدانية تبطل أو الحركات السوء تموت إلا في البرية،
في مواضع القفر إضعاف الجسد بالضوائق والأعمال، لأن
الخلقة إذ يسقط الجسد ويتربص لأجل المفاوضة، يميل إلى التلف والاضمحلال
ويمتلئ آلاماً. وأمامي وحدة القفر فتتثبت الطلبة فيه . وبهذا
يمكننا أن نغيب من أعمالنا الأولى ونتجرد منها .
وبواسطة الأعمال، ونقص الأفكار الحادث من القفر وسكونه .
سريعاً ما ندخل إلى حرية النفس التي تفوق العالم . وفي كل وقت
إشارات إلهية نأخذ في أنفسنا بتجرد العقل، وللمواظبة لله بسهولة نقبل .
إن الطائر الذي يقال له أوريديوس يجول ويفرح حسب قول الحكماء
في الوقت الذي ينفصل فيه عن المسكونة ويمضي إلى مكان قفر وسكون .

هكذا نفس الراهب تقبل الفرح السمائي من ذلك الوقت الذي يبتعد فيه عن الناس ويمضي ويسكن في بلدة السكون، ويتوقع هناك وقت خروجه.

لا يتكدر ضميره ويتعب بالاهتمام. لا حسد ولا رزيّ ها المتوحدين حيثما يكونون أيضاً: ليس تحفظ من غير أعداء. ولا عذاب الحواس والحركات. ليست مادة للرياء والأخذ بالوجوه. ليس خوف من السقوط. ليست مادة للآلام لتتحرك بالفعل.

نسي العقل وابتلع بمحبة ذاك الذي أحبه. وصلى فوجد. انتهت منه تلك كل أمور الأرضية، وصار متوحشاً عن المعاشرة البشرية. ونسي قصد هذا العالم وعزاءاته.

اعلم أنه حيثما تقدم أنس الناس ببعده وتغربه من السكون. بعزاءات متواترة يفتقده الله في جميع أحزانه، وتحس هذا العقل في نفسه.

ليس يحمل الهنا الصالح الطيب، الذي من أجل حبه يزدري ويترك الأشياء والبلد، ويحب القفر والبراري.

يجب أنه يظهر حب الله ويعرف، إذا ما حصل الإنسان وسط أمور مكدرة تقطع رجاه، وهناك يظهر الله قوته بتخليصه منها.

ليس أحد يتعلم ويعرف القوة الإلهية المحيطة بالإنسان والراحة. ولا يظهر فعلها محسوساً قط، إلا في بلد قفر هادئة وبرية ومواضع خالية من المحادثات وجميع مساكن الناس.

وأيضاً الآباء الذين كانوا أثر سلوة من الله لبنيان النفوس، أولاً في القفر والوحدة كانوا يكملون، وبعد ذلك يرسلون لخلاص آخرين.

سؤال:

ما هي علة المناظر والإعلانات؟ وذلك أنه قوماً من الناس ينظرونه، وآخرين يتعجبون أكثر منهم وما يفعل فيهم المنظر فعله؟

الجواب :-

إن ذلك لشيق : وذلك أن منه ما هو على سبيل السياسة وتدبير العامة ، ومنه ما هو على جهة التعزية وتقوية المحنة والتعليم . وهذه كلها إنما تتوجه إلى الناس لأجل محبة الله .

وأولاً على أكثر الأمر أن تلم بثلاثة أصناف من الناس :

+ إما أن تأتي إلى قوم بسطاء وعادمي الشر ، وودعاء فوق الغاية .
+ وإما إلى قديسين كاملين .
+ وإما إلى قوم لهم غيرة متوقدة من الله تعالى . قد هجروا العالم بالكلية ورفضوه . لا يتوقعون معونة من المنظورات . ويغشاهم جيش من الأنكاد ، ويكابدون جهدهم ما يضاهي الموت خطراً من الموت والرهبة أو شيء غير هذا من الضوائق والكوارث ، حتى أنهم يدنون من اليأس وقطع الرجاء .

عند ذلك تأتي التعزيات لهؤلاء . وغيرهم الذين لهم أعمال أكثر منهم لا يحصل لهم شيء من هذا . وهذه علامة الأولى الظاهرة ، ولست أعني طريق المجد . وأما الثانية فلا تكون حتماً .

وبمقدار ما يكون للإنسان عزاء بشري أو من جهة شيء من المنظورات ، فإن هذا العزاء - أي عزاء الناظر - لا يتوجه إليه ، إلا لأجل سياسة ما لأجل الجماعة .

وكلاهما هو لأجل المنفردين المبتدئين . وواحد من الآباء يشهد بهذا أنه توسل وتضرع في باب هذا العزاء ، فسمع :

"يجزيك للعزاء مفارقة الناس"

وآخر كان بهذه الصفة . فعندما كان منفرداً ومتصرفاً تصرف المتوحدين ، كان يتمتع بهذا العزاء من النعمة كل سنة . ولما قرب من العالم التمسه على العادة المألوفة فلم يلقه . فابتهل إلى الله أن يدله على العلة قائلاً " أترى نسيتني يا رب إذ صرفت عني لأجل الأسقفية ؟ " فقيل له " لا ،"

بل في ذاك الوقت كانت برية، ولكنني أهتم به..

فنقول أنه لا يمكن أن يشترك العزاء الروحاني مع العزاء الجسماني، ولا يتوجه إلى أحد من الناس إلا لسياسة من السياسات لتقدم ذكرها المناظرة والمحادثات والمسألات والجوابات، لأن قوى قدوسة تظهر للمستحقين، وتصنع الاستعلانات، وتخبر الذين في القفار والمنفصلين عن بني البشر. من حيث أن الإنسان مضطر إليه لأجل أنه ليس له من المكان مؤازر ما ولا عزاء.

وأما الاستعلانات المحسوسة بالفهم وبالعقل، فبتوسط المطالعة تحصل وتقبل. ووجودها للكاملين والعارفين فقط.

ثلاث حروب:

وأما التي قال الأب أوغري في أمر الوحدة: جيدة هي الوحدة والانفراد .. مع بقية كلامه .. ولكن فليحذر الأخ لئلا ما يقدر أن يثبت قبالة التجارب الحادثة عليه في السكون فيتأذى في عقله، فليخرج إلى المجمع".

هذه الوحدة التي قال عنها، ليست هي سكون القلايات، ولا ذلك الكامل الذي يكون من الانفراد؛ بل السكون في البراري والجبال. لأنه ليس يليق بكل واحد، بل بأناس عارفين، قد نمت فيهم المعرفة، وتزايدت محبة المسيح في قلوبهم، واقتنوا صبراً واحتمالاً كثيراً.

لأن ثلاث حروب صعبة تلزمه بالتدبير الفريد في القفر: الخوف المرعب في الليل، والضجر المحزن في النهار، وضلالة الشياطين وطغيانهم. لهذه الحروب الثلاث تأتي على الإنسان في البراري.

فإن كان أبله غير دريب، وما فيه حب لربنا، وصبر قليل: إذا لم يكن له مرشد، سريعاً يتأذى بعقله.

لأنه صعوبة هذه الحروب الثلاث ما تحصل للإخوة الذين في الجامع
يحفظون سكون الأسابيع، ولا لذلك المتوسطين، حتى ولا للكامل.
وإن حدث شيء مثل لأحد منهم، يقدر المرشد بمعونة ربنا أن يبطله.
لهذا قال القديس أوغري: "إن لم ينتفع الأخ من الوحدة، فليرجع إلى
السكون، سكون الأسابيع في المجمع"
وإنما يفعل برأي المرشد والمعلم وإذنه، وبمشورة الآباء وصلوات
خوته ينتفع.
لأن كل إنسان حسب مقدار سكونه وصبره وتحفظه، هكذا تكون
روبه وعطاياه.

٦- التجرد

تجرد هو بدء تدبير السيرة :

إعلم أن بدء تدبير الوحدة هو التجرد والسكون وعدم الارتباط
سان أو بأمر ما ... والذي مبادئ الطريق ليست له - أعني التجرد والسكون -
م أيضاً أنه لا تواضع له ولا صلاة.
الانحلال من الكل يتقدم الارتباط بالواحد. وإن في تدبير
مة الأفراد، قد يتقدم هذا على ذاك، لكي لا تنحجب المحبة. ترتيب عادة
بير يخالف هذا.
أما أنت فاضبط الترتيب العام. فإن تقدمتك النعمة، فهو لك.
سير في الطريق الموضوعة لكل أحد. واطلع صاعداً الدرج الروحاني بتدريج.
الكلام على الفضيلة يتطلب قلباً قد تجرد من الأوجاع ومن جميع هم وخاطر.

أما الإنسان المتعب بفكره بهموم العالم الزائل، فالأخبار التي على الفضيلة لا تنبه فكره إلى محبة الله تعالى.

بادر إلى حل كل رباط براني من ذاتك، وحينئذ تقدر أن تربط قلبك بالله سبحانه وتعالى. لأن الانفصال من الهيولى، يتقدم الاتصال بالله.

إن الخبز يعطى للطفل بعد الفطام. والإنسان الذي يريد أن يحظى بالإلهيات، ينبغي له أولاً أن يتغرب عن العالم، كالطفل عن ثدي أمه.

إذا ما أردت أن تدنو من الله تعالى بقلبك، فأظهر له أولاً شوقك بتركك الأمور الجسدانية، ومن هذه ابتداء السيرة الأزلية.

ومن أجل هذا، قبل كل شيء أمرنا ربنا بالتجرد والتمسك بالمسكنة والابتعاد عن سجس العالم والانحلال من هم كل الناس، حسب قوله: « من لا يجحد أهله وكل شيء له ويجحد نفسه أيضاً، ما يقدر أن يكون لي تلميذاً ».

وهذا حتى لا يرتزى العقل بشيء، لا بمنظر ولا بسمع، ولا بهم الأشياء ولا بفسادها ولا بتبديدها، ولا بإنسان رأساً. لأنه ربط عقلنا برجائه فقط، وإليه صرف كل أفكارنا. وبه ربط كل همنا بالانحلال من الكل.

عن الضوائق والصبر تتقدمها الغربة والتجرد والسكون والإعتزال الجسداني والوحدة، وهؤلاء يساعدون على الصبر بسهولة.

وأيضاً تحتاج الصلاة إلى التدريج، لكيما بطول المكث فيها يتحكم العقل، من بعد التجرد الذي يحل حركاتنا من الرباطات.

حث على التجرد:

اترك الحقيرات لتجد العظيمات. دع الزائلات لتجد الأبديات. كن ميتاً بالحياة، ولا تحسن بالميتة. أعط نفسك أن تموت بالنشاط،

هـ تحسبه مديوناً، ليس فقط الذين لأجل الـ [illegible] بالمسيح في
بقات هم [illegible]، بل والذين لأجل حفظ وصاياه يموتون بالموت الإرادي
ليس أحد يشتهي السمائيات وهو مرتبط بهواه في الأمور الجسدانية.
ليس أحد يطلب الإلهيات وهو في الأرضيات! لأن الشهوة التي في كل إنسان
ـه أعماله تعرف، والأشياء التي يقتنيها، إياها يطلب في صلاته...
كن صاحياً إذاً أنت مرتبط بالجسد [illegible] وخصوصاً بحريتك
ـه أجل المسيح.

لا تطلب هذا موضوعاً خارجاً عن القلب الذي هو معرفة الإ
بتعد عن كل عزاء يحدث بتوسط خدمة الحواس، لتؤهل لذلك العزاء الذ
يقتني من الداخل.

المتوحد الذي تغرب من العزاء العالمي، ولم ينظر كل حين إلى [illegible] الذي
من المسيح، هو مائت في حياته.

كل الخيرات والشرور التي تعرض لك، فلتكن عندك شبه [illegible]
لأنه ليس فقط بموت الجسد تنحل [illegible] بل مراراً كثيرة من قبل الموت
ـت كلها وتنقلب.

فإن كان شيء منها مشتركاً في نفسك، فاحسب أنه هو اقتناؤك
إلى الأبد، لأنها ستذهب معك إلى العالم العتيد. فإن كانت صالحات،
افرح واشكر الله في قلبك. وإن كانت رديئات، فاحزن وتنهد، واطلب
الابتعاد عنها ما دمت في الجسد.

اعطش من أجل يسوع، لكي تروى من حبه. اغمض عينيك عن
كرامات العالم، فيما تستأهل أن تملك في قلبك السلامة من الله.
صم عن الأشياء المشتهيات اللذيذات قدام الأعين، لتستحق الفرح [illegible].
النفس التي لله موجود [illegible] وحده فقط.
الأرض من النيام [illegible] العالم الجديد.

سؤال:

من هو المستغني عن مقتنياته؟

الجواب:

هو الذي قد لحظ، بوجود المرارة المندفقة في حلاوة العالم، ومنع نفسه من أن يشرب من هذه الكأس. وهو أيضاً يبحث عن خلاص نفسه، ولا يكف عن الجري إلى أن يتخلص من هذا العالم. وقد أغلق أبواب حواسه لئلا يدخل إليه شوقه لهذه الدنيا فيسرق كنوزه المحفوظة.

شروط التجرد:

لا ترتبط بشيء ما ولا بإنسان من غير ضرورة. ولا تطلب ربحاً معيناً. وعلى جبتك ومنزلك لا تشفق، بل ارفضهما في كل وقت.

لأن مبدأ كل شيء هو الهرب من محبة الأرباح. لأن محبة المنظورات والجسد ما تترك الصلاة تتوقد.

إن كانت لك قنية، ففرقها مرة واحدة. وإن لم يكن لك، فلا تؤثر أن يكون لك.

أفضل من قلاليك النعم والفضلات، لأن هذا الشيء يتحول إلى الفتنة وإن لم تشأ. لأن العوز إلى الأمور يعلم الإنسان الإمالة. وأما إذا ما تمكنا من الأمور، وانتفخنا فيها، فإننا لا نقدر على إمالة أنفسنا.

[من فضائل الراهب] ... اطراح كل المنظورات، والتوفر على حب القنية الخالصة، والتهاون الكلي بالجسم ... وقطع كل خصوصية تتعلق بهذا الدهر.

لا تظن أن اقتناء الذهب والفضة فقط هو حب القنية، بل كل ما تعلقت إرادتك بشهوته.

إن كان لك شيء يفضل عما تحتاج إليه في يومك، فأعطه

للمساكين، وكلم بدالة قدام صلاتك، أى تحدث مع الله كما يتحدث الإبن مع أبيه.

إياك أن تحب القنية من أجل محبة المساكين، لئلا تكون ضد قلبك من هذا الوجه. وتلقى في نفسك ظناً بأن تأخذ من واحد وتعطى لآخر، وتبدد كراماتك بخضوع الطلب من الناس، وتخيب من حسبك، وتعدم حرية فكرك باهتمامك بالأمور العالمية. لأن منزلتك أعلى من الراحمين.

إن أنت هجرت أمور الدنيا، فلا تنازعن أحداً في شئ البتة.

إن كنت قد رفضت الطمدة، فاهرب من المتصدرين إلى والمتشوفين إلى.

من قال إنه قد طرح العالم، ثم مع هذا ينازع الناس في شئ ما لئلا يعوزه شئ من ثيابه، فهذا ضرير كامل. لأنه قد ترك كل الجسم بإرادته، ثم أنه يخاصم ويقاتل من أجل واحد من أعضائه!

بعد جهد تجد أناساً قليلين يرذلون غنى العالم الذى اقتنوه وجمعوه، ويختارون عليه تدبير سيرة الصليب، ويحبون بساطة الصديقين، وبنقاوة قلوبهم يكونون أكاليل في تاج الملك.

وسائل للتجرد:

ليس أحد يقدر أن يحصل على كنز المنقبة على الحقيقة - التي هي
دم القنية - دون أن يقنع ذاته بأن يصبر على التجارب بحزم.

وليس أحد يتمكن من احتمال الضوائق والصبر عليها، دون أن
من بأن هناك شيئاً موجوداً أشرف من الراحة الجسمانية، عوضاً
ن الضوائق والأحزان التى هيأ ذاته لقبولها.

إذ إن كل من أعد نفسه لعدم القنية، فأول ما يتحرك فيه حب
عه، حينئذ يلهم به فكر الزهد في قضايا هذا العالم.

ومن أعدم نفسه الأمور الهيولانية، ولم يتجرد من فعل الحواس.

أعني النظر والسمع . فقد جلب لذاته حزناً أو ضيقاً متضاعفاً ، وهو يكابد الشقاء والضنك مكابدة مكدرة . لا ، بل تعدم فائدة من استعمل الأمور المحسوسة . إذ رجع ~~[illegible]~~ فتنصم بك بالحواس ، فيتأذى وينفعل بالآلام بما كان يشعر به أولاً ؛ انفعالك ب~~[illegible]~~علم بالعقل . لأن ذكر الاعتبار على الأمور لم ينصرف عن الفكر ...

فإن الابتعاد والوحدة أمر حميد . إنه يفيد جداً ، لأنه يسكت الأفكار بشجاعة ، ويفيد قوة لاقتناء الصبر ، ويعلم الإنسان الاحتمال والصبر العظيم على ما يداهمه من الشدائد والمحن .

لذلك هرب القديسون إلى البراري والقفر ، حيث لا توجد الأمور التي هي أسباب السقطة .

ابتعد عن محبي القنية ، وعن المشغوفين بالجسد ، مثلما تهرب من الحيّات .

فوائد التجرد :

بقدر ما ينعتق الجسد من رباط الأشياء ، هكذا ينعتق الفكر .

وإن لم ينفك من كل ما يربطه ومن اقتنائه ، لا ينعتق من الحركات التي من أجله ، ولا يكون بطالاً من الأفكار التي تظلم العقل . وحيث الغشاوة وتشبيك الأفكار ، فهناك الأوجاع .

وإن لم ينفك الإنسان من هذه كلها التي قلتها ومن أسبابها ، لا يقدر العقل أن يتفرس في الخفيات .

حب المسكنة بتجلد ، لينجو نفسك من التشتت .

ليس أمر من الأمور يصنع هدوءاً في العقل ، مثل المسكنة الاختيارية . إن وضعت في نفسك حد المسكنة ، فستنعتق بفضل الله تعالى من الهموم ، وتصير بمسكنتك أعلى من العالم .

محبة العالم - بالرحمة والتجرد - تنقلع .

ثانوية تصور الموت هي ميتوتة القلب. القلب الذي مات بالحقيقة من العالم، بالله يتحرك جميعه. الميتوتة الحقيقية هي التحرك بالموت.

كلما كان الإنسان في التجرد، فالإنتقال من الحياة يتحرك في قلبه كل وقت على الدوام. وبتلك الحياة التي بعد القيامة يهجس في كل وقت، ويتخيل أنه يقتضي الاستعداد إلى هناك. والصبر على فقد كل كرامة وراحة ينشو في قلبه. والاحتقار لهذا العالم يختلج في فكره في كل وقت، ويكون لبيباً يحكم فكره بفكره.

ويقتني قلباً شجاعاً كل جهته. ويجسر على كل أمر مخوف وكل شيء خطر ومميت. لأنه ولا من الموت يخاف إذ أنه ينتظره في كل وقت كما لو كان قريباً منه. ويلقي همه على الله بثقة بغير شك ولا ارتياب.

وإذا ما صادفته العوارض الصعبة والشدائد، فمثل ما تعد له الأكاليل يعرف على التحقيق، ويحتمل بفرح وتسر نفسه بقبول. لأنه يعرف أنه بأمر له سمح بحصوله له، من أجل منفعة ما وسبب غير معروف بسياسة غير ظاهرة.

الذي له غنى هو ناقص عن غنى المملكة. لأنه هو مع الملك هو تحت الخوف من البرانيين والجوانيين.

وأما الذي قد ابتهج الملك، وسكب عليه مواهبه، وجعله ابنه سرا متداخلاً في المملكة؛ فحتى لو كان فقيراً ومسكيناً، هو متفاضل على جميع رفاقه، لأن وضعية المملكة لا تقع تحت خوف السالبين، ما دام لم يصر سبباً للخطايا بإرادته.

إن السابح يغوص عارياً في البحر إلى أنه يجد اللؤلؤة. والراهب الحكيم يسير في هذه الدنيا عارياً، إلى أنه يصادف تلك الدرة الحقانية التي هي يسوع المسيح. وإذا ما وجدها لن يقتني معها شيئاً من الموجودات. بمقدار ما يتعرى من الإنسان بهذا العالم ويجتهد في خوف الله سبحانه

على ذلك الحد تدنو منه العناية الإلهية، ويحس بمذاقتها إحساساً لطيفاً بالخفاء. وتعطى له حركات نقية ليفهم بها.

حتى لو تقديم الخيرات العالمية كرهاً من غير إرادته! فباستمرار ما يكون خالياً منها، تصحبه رحمة الله وتشمله جوده. المجد للذى باليمين وبالشمال يصنع لنا أسباب الخلاص.

نتائج عدم التجرد :

كل إنسان تدبيره ردئ، حياة هذا العالم شهية عنده، وعلى هذا من هو قليل المعرفة .

لن يكون حكيماً عندك، الذى من أجل حياة هذا الزمان، يستعبده تلك للأشياء!

المتوحد الذى خرج من الهتاك المنظورات، قد نسى وعده الأول.

المرتبط بحب القنية، لهو عبد للآلام .

والمرتبط بهذا العالم ، يكون جباناً.

وإذا اتفق له بسبب أن يحصل بيده شئ من الأمور الزائلة اقتناه بغواية ذلك الحكيم فى كل الشرور أعنى الشيطان؛ تبدأ أن تتحرك فى تلك محبة الجسد، ويتفكر فى حياة طويلة، وأفكار تنبض لنجاح جسده - تتحرك فى قلبه. ويحتفظ بجسده - إن أمكنه - لا تدنو منه أذية، ويتخيل ما يليق بنجاحه. وتبتعد عنه كل تلك حتى غير متعبدة لشئ من أخطار الخوف.

ومن هذا الموضع - من حركات الخوف والرعب ومن أسباب الخوف يتفكر ويهجس. إذ قد أخذت منه تلك الشجاعة القلبية التى كان قد اقتناها فى نفسه بارتفاعه عن العالم بسبب التجرد الذى كان فى ذاته ولأجل أنه قد صار وارثاً للعالم بحسب كيفية اقتنائه له،

تألم أيضاً بالخوف حسب سياسة الله وترتيب ما شرحه وحكم به، إنه لأنه ناحية أعددنا أعضاءنا للاحتمال، نكون له عبيداً بخضوع الخوف حسب قول الرسول.

صعب هو جداً وخطر بالحقيقة، الجهاد الذي يكون بواسطة الأمور، ولو يكون المجاهد فاتكاً شجاعاً جداً. لأنه إذا ما كانت قريبة من الإنسان وحركت عليه القتال من غير معاندة الأعداء، والخوف والرعب يكونان لاصقين به، والسقطة سهلة عليه، أكثر من أن يصادف الشيطان هو بذاته بالحرب الظاهرة إذا ما ظهر العدو تجاه عينيه.

لأنه كلما كان الإنسان غير مستبعد من الأشياء التي يخاف منها لأجل فعل الدوام للعدو عليه سبيل كل وقت يكسل فيه أو يوجد له إهمال قليل، لكي يهلكه بسرعة ...

ولهذا ما عرف القديسون القدماء الذين ساروا في هذه، أنه ليس في كل وقت يكون العقل في صحة ويقدر أن يثبت في رتبة عدم المبالاة ... لهذا بحكمة تميز الآباء، وتسلحوا بالتجرد مثل الترس. لأنه يصون من جهادات كثيرة وينجي، حسبما كتب أن ثم من يفلت من الخطأ من أجل فقره.

تخايل الصور التي تكون بالفكر، يضغط الإنسان ويؤذيه من دون الأمور. فإن كان تخايل الحادث حدوثاً عقلياً يسبب للإنسان وجعاً خلواً مثل، فماذا نقول في نفس الأمر الموجود القريب؟!

سؤال: ٩

ما هو العالم؟ وكيف نعرفه؟ وما هو الذي يؤذي محبيه؟

الجواب:

إن العالم زانية ما، اجتذبت بشهوة جمالها ناظريها إلى الانجذاب إليها وعشقها. والمقتنص بحبه والمشتبك به اشتباكاً"

جزئياً، لا يقدر أن ينفلت من يديه إلى أن يسلبه حياته. وإذا ما عراه من كل شيء، وأخرجه من بيته يوم موته، حينئذ يعرف أنه مُضِل وأنه كان مطغياً له.

ومتى اجتهد المرء في الخروج من ظلمة هذا العالم، فما دام في قبور شهواته مدفوناً، فإنه لا يقدر أن ينفضه إلى تشبكاته. وعلى هذه الصفة يمسك العالم لا تلاميذه وأولاده المرتبطين داخله فحسب، بل والذين لا يقتنون شيئاً والنساك الذين قطعوا روابطه وصاروا دفعة أعلى منه، يسرع في صيدهم بأنواع أنواع وفي أن يطأ عليهم بحيلة ما.

٧- جمع العقل.

مقدمة:

الطياشة تسمى رديئة، عندما يطيش الذهن المجسم بالأمور الجسدية العالمية. أما الطياشة الجيدة، فهي إذا ما طاش العقل بهذيذ معرفته الخصبة لنفسانية، بانتقال من تدبير إلى تدبير، ومن ثاورية إلى ثاورية، ومن م إلى فهم.

جمع الذهن وسكون الضمير، يقال إذا ما هدأت الأفكار بالهذيذ الروحاني على عناية وسياسة حكمة الله، وتدهش النفس بسيرها لرسوم داخل القلب.

كما أن الهذيذ بالمنظورات هو طياشة بالقياس إلى المعقولات، هكذا أيضاً الهذيذ بالمعقولات هو طياشة، بالنسبة إلى الهذيذ بأسرار معرفة الثالوث المقدس.

البحر المادي الساكن ليس لحسنه حد. وبحر الضمير الهادئ السليم ليس لشرفه حد.

ينبغي ألا نأخذ الهدوء بجزء واحد ونترك سائر أجزاء النفس والجسد!... وكما نمنع جسدنا أن يضطرب بغير الواجب، كذلك أيضاً نجمع عقلنا من الهم والهذيذ بالجسدانيات ومن الملامة والحقد على القريب، وبالدوام نشخص على الصليب، ونحرص أن ينحل ويزول من هناك.

الانجماع الحقيقي يُعرف، إذا كان العقل منفطماً من تصور أشكال الآلام، سكون العقل هو قيام الهدوء في النفس. لأن الهدوء إنما يُعرف بغير تصور الأشكال.

لا يعجب أحد من هذه، أنه ليس بسهولة يوجد جمع العقل، حتى ولا ذلك الجزئي الذي هو في وقت الخدمة والصلاة. لأنه ليس من أعمال الجسد فقط يكون، وليس للناس مبتدئين، ولا أيضاً التعود، ولا بوقت قليل يوجد متسهلاً. بل بسكون كثير وعمل القلب. يُعطى للناس قد تركوا العالم بالكلية، وبالكمال قد ماتوا من نظر الناس وسماعهم.

فإن كان أحد يعد نفسه لهذا، ومن أجل محبة الله يتخلى من الجسد وبالعالم: أولاً مثل بذور ما يؤهل لذلك الجزئي. وبعد ذلك مثل الزرع ينشو به هذا الأمر. ويبلغ بنمو السير إلى تلك الموهبة التي ليس لها قياس. فتجذبنا يا أحبائي شهوة هذه الموهبة، وتقطع منا أمور هذا العالم، ونتبذه، ونسرع في سيرنا في اتباع المسيح له المجد.

حث على جمع العقل:

كل موضع تحصل فيه، كن منفرداً بضميرك، متوحداً، غريباً... لا تتشتت بالطياشة في الأمور الباطلة، لئلا ينسالك هو في وقت تجاربك. داوم في صلاتك على هذه قائلاً "يا الله جُد علي بنوح القلب. يارب ستأصل محبة ومفاوضة العالم من قلبي". هذه تدخلك في أسرار المسيح

إذا اعتنيت بك وبتفسيرها في نفسك.

ينبغي للمتوحد ألا يترك في قلبه ذكر إنسان، أو اهتماماً بشيء من الأمور الجسمانية. لأن هذا ليس هو عمل الحكمة.

لا يليق بالمتوحد أن يحرك وينزل فكره من القيام قدام الله هم بشيء من الأشياء.

وأما أنت فإن كنت تريد عمل السكون، فكن مثل الشاروبيم الذين لا يهتمون بشيء من الأرضيات. وفكر أن ليس في الدنيا إنسان آخر إلا أنت وحدك والله الذي اهتمامك وهذيذك به، حسبما علمك آباؤنا الذين ساروا قبلك في هذا التدبير.

لأنه ما يمكن أن تهتم بأمور كثيرة، وتقدر أن ترضي الله بسيرة السكون واعرف هذا من نفسك: من دون رفضك كل الأشياء، وكل أمر وكل اهتمام إن كان من النظر أو من السمع؛ إن قلت إنك تضبط السكون، ضحكٌ هو!

الحكمة الحقيقية هي النظر بالله. والنظر بالله هو صمت الأفكار.

التعب الجسماني العاري من طهارة العقل، هو رحم عاقر وأثداء يابسة. لأنه ما يقدر أن يدنو من معرفة الله سبحانه وتعالى. إنما هو يوجع الجسم ولا ينفع.

يجمع العقل بالبعد عن الأمور:

فإن كنت تريد أن تتخلص من طياشة الأفكار وتجد فسحة للصلاة بعقلك. اجمع ذاتك من الهيولى، والاهتمام بالأشياء، وطموح طياشة الحواس.

بقدر ما ينعتق الجسد من رباط الأشياء، هكذا ينعتق الفكر. وإن لم ينحل من كل ما يرى ومن اقتنائه، لا ينعتق من الحركات

التي من أجله، ولا يكون بطالاً من الأفكار التي تظلم العقل ...

لا يقدر إنسان أن يدنو من الله، إلا لو ابتعد عن العالم، وقولي الابتعاد ليس هو الخروج من العالم، ولكن الابتعاد عن الأمور والأشيا

إن النفس لا تقدر أن تتنقى من خباط الأفكار من دون جحد موائد القنية، ولا أن تحس سلامة الفكر من دون همود الحواس.

من دون الصلاة الدائمة والتضرع وجثو الركب دائماً، لا يمكن أن تأتينا الرحمة، وكيف يمكن اقتناء هؤلاء، إذا اقتنينا مع هؤلاء أولئك أعني الأشياء المحسوسة ؟!

حياة الصلب مخفية في الميتوتة من الكل. ولا يمكن الصعود إلى صليب الإرادة ما دمت مرتبطاً بشيء.

وإن كنت تقول ثم من هو منقبض داخله ويهجس بالشر، فأرني واحداً من الذين آل [illegible] يقدر أن [illegible] العقل بدون تصور الأمور؟ فإن دام العقل متصوراً أشكال الهيولى، فليس هناك اجتماع إذن.

الراهب هو الجالس خارج مناظر العالم، وليس في صلاته سوى طلبة واحدة هي شهوة العالم المزمع.

يجمع العقل بالبعد عن الاهتمامات :

إن كنت تحب سيرة السكون الملائكية وتدبير الصلاة، ودع العقل بالسير إلى الشيخ الحبيب، فلا تكون ذاتك في أمور كثيرة، ولا تخرج فكرك خارجاً عن دروس الكتب أبداً.

إن كنت تريد أن تنقبض من طياشة الأفكار، وتجد فسحة للصلاة بعقلك، اجمع ذاتك من الهيولى، ومن اهتمام الأشياء، وطموح وطياشة الحواس.

لا تهتم بالأشياء الباطلة، حتى تكنز لنفسك المنفعة.

حرر نفسك من الاهتمام الباطل، لتجد نفسك الفهم.

النفس الدائمة من كثرة الاهتمام لأجل الجسد، تكون ساكنة بحركات. فكن حراً بالجسد، لتؤهل لتلك الحرية التي للروح. كن مرتبطاً بحريتك، لئلا تكون مربوطاً بنير العبودية لأعدائك.

إن كنت من أول وهلة تقدرت فأظهرت في نفسك مثال الانتقال من الحياة الزمنية بكثرة سكوتك عن التصرف فيها، فإنك تكون مائتاً بالكمال لإيضاح تلك البطالة المزمعة، التي تكون بتبطيل اهتمام كل شيء بواسطة الموت.

قال أحد الشيوخ: ينبغي ألا نخلط بعمل السكون اهتماماً آخر أو عملاً ما، ما خلا الأشياء التي تليق بعمل السكون، ونتحفظ في كل تدبير بما يليق به، لئلا تتخبط علينا سيرتنا ونضطرب في تدبيرنا.

الفضيلة هي أن يكون الإنسان خالياً من العالم بفكره.

الذي يريد أن يضع أساس الفضيلة، لا شيء يتقدم بأنواع خاصية مثل أن يقصي الإنسان نفسه من اضطرابات الأمور، ويداوم على كلام النور واستقامة السبل المقدسة.

الإنسان المتعب بفكره بهموم العالم الزائل، حتى الأخبار التي على الفضيلة لا تنبه فكره إلى محبة طلب اقتنائها.

المبتعد عن العالم هو الذي يبغض المفاوضة مع أفكار واهتمامات هذا العالم.

الغريب هو الذي لا يخطر في فكره شيء من أنواع هذا العالم، ويكون مبتعداً عن كل حديث واهتمام بالكل.

رأس حياة الإنسان الحقة هي مخافة الله. وهذا الخوف مع الاهتمام بالأشياء لا يبقى في النفس.

الذي يهتم بأشياء كثيرة هو عبد كثيرين. والذي يرفضه

كل شيء ويهتم بإصلاح نفسه ، فهو محب لله .

لا يمكننا أن نهتم بالأشياء المحسوسة ، ونقدر مع ذلك أن نبطل الآلام ونقوم أنفسنا .

إنسان كثير الاهتمام ، لا يمكنه أن يكون وديعاً هادئاً . لأن علل الأمور الضرورية التي فيها يشقى وينصب تضطره إلى أن يتحرك فيها مكرهاً مجبراً ، وتزيل عنه السكون والهدوء .

فحينئذ لا بد للراهب أن يوقف ذاته لدى وجه الله تعالى ، ويكون شخوصه إليه ، إن كان يؤثر على الحقيقة أن يحفظ عقله ، وينقي الحركات اللطيفة التي تدب فيه ، ويتعلم مع سكون الأفكار أن يميز ما يدخل وما يخرج .

لأن المشغولية المفرطة دليل على استرخاء الراهب عن تدبير وصايا المسيح تعالى ، إذ لتبرهن على تقصيره في الإلهيات .

لا تلتمس نوراً في نفسك خلواً من زوال الاهتمام ، ولا سكوناً ولا هدوءاً في تسييب الحواس ، ولا قبضاً للحواس مع تواتر الأشغال . فإنك إذا لم تكثر من الأشغال ، لا تجد في عقلك اضطراباً .

الاهتمام بالأمور العالمية يقلق النفس ، ويتخبط العقل من جهتها ويفقد هدوءه ، ويبعد عن طريق الحق .

ينبغي للراهب الذي تجرد للفلاحة السمائية ، أن يكون بغير هم عالمي على الدوام بفكره ، حتى إذا ما رجع إلى ذاته لا يجد فيها شيئاً منه . لأنه إذا بعد عن الأخذ والعطاء وتعطل عن الأسباب العالمية ، أمكنه أن يلهج في ناموس الله ليلاً ونهاراً من غير انجذاب . وهكذا يكون إذا ما تفرس في ذاته ولم يلق فيها شيئاً من أمور هذا العالم ولا لذيذ شيء من الأشياء المنظورة . لكى - بطالته من هؤلاء بالكمال

يتلون اسم الرب بغير انجذاب .

الأفعال الكثيرة تحدث إهتمامات شتى . والاهتمامات الكثيرة تولد أفكاراً كثيرة . وبهذا يخرج العقل من الهدوء ومن أن يكون مرتفعاً عن كل هم أرضي بسلامة أفكاره ، ما خلا الأمور الضرورية التي لابد ، فيصير حامل إهتماماً وهذيذاً واحداً ، بحركاته الردية .

الطهارة لا تختلط مع الخلطة ، ولا تذكار الله مع الاهتمام بالأفعال والخلطة بأمور كثيرة .

وكما أنه لا يتمكن من قد حبس رأسه داخل برميل مملوء ماءً من استنشاق الهواء اللطيف المندفع في الفضاء الفارغ ؛ هكذا لا يستطيع من قد غطس ضميره في اهتمامات الأمور الحاضرة أن يقبل نفسه استنشاق إحساس العالم الجديد .

النفس التي أحست بالحياة التي تفوق الجسد ، لا تهتم بما للعالم .

بعد جهد يقدر الإنسان أن يتخلص من هؤلاء إن لم يجد أولئك ، وأما بالكمال فلا . والذي يصابر إنما يحمل على نفسه جهداً عظيماً .

بعد وجود هؤلاء من غير جهد ما يقدر أن يجد أولئك .

من دون أن يتعطل الإنسان عن الاهتمام بالأمور العالية ، ما خلا حاجة الطبيعة الضرورية ، ويعتمد على الله تعالى في الاهتمام بذلك ؛ لا يتحرك فيه الشكر الروحاني ، ولا يحس بذلك الذي كانوا يعيدون به الرسول .. إن قراءة الكتب الكثيرة جعلتك تخرف يا بولس .

كل نفس إذا ما أخرجت وازدرت بالاهتمام وهذيذ الأمور ، على ما في طبيعتك ، ليست لها حاجة إلى عناية كثيرة لتجد في ذاتك الحكمة عن الله .

بقدر ما يبتعد العقل عن رباطات الاهتمام هكذا يصفو . وإذ يصفو يدقق . وإذ يدقق يرتفع عن حركاته هذه الحاملة غلظ هذه الأعراض . ويصعد ويعرف العقل أنه ينظر الله مثله وليس مثلنا .

إن لم يستحق الإنسان ولا الاستعلاء، ما يقدر أن يعرف هذه.
وإن لم يصل إلى الذكاوة، لا تصفو حركاته ليبصر الخفيات.
ما هي الضرورة التي تلجئنا إلى أن نبحث عن الله في السماء والأرضين،
وأن نطوف بعقلنا وراءه في الأماكن ؟!
طهر نفسك أيها الإنسان، وأزل عنك ذكر الاهتمام بالأمور
الخارجة عن ضيعتك وهذيان التذكارات البرانية، وعلقه على باب حركات
ذهنك ستر العفة والإتضاع. فإنك بتوسط هؤلاء تجد الله داخلك.
والدليل على هذا أن الأسرار تنكشف للمتواضعين.

يجمع العقل بترك الهذيان الباطل والرديء:

العقل هو ينبوع القلب، وهو لا يهدأ عن طياشة العادة. فإن
كنت تحب نور الضمير الذي إنما يكون من جمع الأفكار: أولاً، بالصبر
العقرب والتعصب اقطع عنك كل هذيان رديء، وفكره زماناً.
إن كنت تخاف من الطياشة، اقطع عنك الهذيان الرديء، الذي
قد انجمع من انحلال السيرة ...
أيها الراهب من الاضطراب الخارج إلى السكون، احترس من اضطراب
الأفكار داخلك لأنه أصعب وأشر جداً".
لا يطيش فكرك بشيء من الأشياء، وليكن عندك العالم
الغريب هو وجميع ما فيه.
عقل المتوحد هو السير ... وغليته هي استئصال ذكر هذا العالم،
وتميز تجليات العالم الجديد.
.. وهو مفتقر إلى انقباض الضمير وجمع الأفكار من الطياشة.
المتوحد الذي يقطع رأس الأفكار هو مجاهد نشيط، ويؤهل
سهولة للذكاوة وينعتق من الطياشة.

يتحيل ألا يسكن الضمير أحد داخله بالكلية، لا بذكر الأصدقاء ولا الأقرباء. بل يمسك حسه بمواردة بلا فرز واحد من الأرض، ويهدئ قلبه. ولا يرتبط العقل بشيء ولا بإنسان خارج عن ذاته فقط، بل بأعمال الفضيلة التي تكون من داخل. التي يكون عملك بذواتنا.

المتوحد الذي ما يزجر الفكر أو الذكر الذي يصعد على قلبه ويسكنه، بل يقبله بأمانه ويتفاوض معه بفرح، ويتجاوب معه ويخرج في طريقه: هذا سوق عظيم وتجارات كثيرة داخله، ويبيعون ويشترون. وفي وقت سم الموت، وفي وقت دواء الحياة. فإنه هو لم ينهر الفكر، بل يتفاوض قبالة الأفكار الغالبة. فأخذته هي لهلاك من الحق العتيد.

إذا انحل الضمير من التحفظ، وزاغ عن الحق، وسار وراء الأفكار المضادة، حينئذ تضطرب أمواج بحر الضمير بضلالة وكأن لا حق وواجب وعدل، ويزكي الإنسان ضميره، ويشجب رفيقه ويدينه ويزجره. ولكن ليس لنا أن ننخدع بهؤلاء، بل نضادهم ونزجرهم منذ البدء، ونقمع وحشيتهم الفاعلة بوجه فضيلة البر، من قبل أن يخرجونا من بلد السلامة وهدوء الحب.

المتوحد الذي ينقطع إلى الكلمة في تركيب النفس، المتولدة من تردد الأفكار الداخلة التي تكدر النقاوة، وعند ذلك تتركب وتتميز وترسل عند مسالك، وهو يعد ذاته لسكون الضمير الذي منه يولد الصمت البسيط: لأنه إليه منعه عن صوت الكلام وتردد الأفكار لئلا تكون منه تجارات المفاوضات والشكوك التي منها يتولد الحقد والغضب والحنق والكآبة التي هي خانقة النفس.

حتى في السكون أيضاً يفر من ينبوع التذكارات والأفكار، ويستعين بصمت الضمير البسيط الذي هو مطلب العقل والاتحاد مع يسوع له المجد الذي هو السر الجديد وثمرة الحكمة العتيدة.